

توفيق الحكيم



أهل الكهف

مكتبة علي بن صالح الرقمية

توفيق الحكيم



أهل الكهف

مسرح

1933



كتب اونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ
أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾

(الكهف: ١١، ١٢)

الفصل الأول

(الكهف بالرقيم .. ظلام لا يتبيّن فيه غير الأطياف؛ طيف رجلين قاعدَيْن القرفصاء، وعلى مقربةٍ منهما كلب باسط ذراعيه بالوصيد.)

مشلينيا (وهو أحد الرجلين): يا مرنوش!

مرنوش: أستيقتت؟ ماذا تُريد مني؟

مشلينيا: أين أنت؟ أسمع صوتك المتبرّم ولا أراك. آه! ظهري يؤلمني!

مرنوش: دعني. أنا أيضًا ضلوعي توجعني. كأنما نمت عليها عامًا.

مشلينيا: أين الراعي؟ أين ثالثنا الراعي؟

مرنوش: أتبيّن شبح كلبه هنا باسطًا ذراعيه.

مشلينيا: ألا ترى هذا الراعي يتجنب قربنا؟ أين هو؟

مرنوش: لعله بباب الكهف يرقب طلوع النهار، شأن الرعاة.

مشلينيا (يتمطّئ): آه! ظهري يؤلمني! كم لبثنا يا مرنوش؟

مرنوش: أف! إنك تخرج صدري بأسئلتك!

مشلينيا: أنا كذلك — لو تعلم — ضيق الصدر مثلك! مرنوش، كم لبثنا ها هنا؟

مرنوش: يومًا أو بعض يوم.

مشلينيا: من أدراك؟

مرنوش: وهل ننام أكثر من هذا القدر؟

مشلينيا: صدقت (صمت)، (وفجأة يقول وهو نافذ الصبر): أريد الخروج من هذا المكان.

مرنوش: ويحك! إلى أين؟

مشلينيا: أوتريدني على المبيت هنا ليلة أخرى؟

مرنوش: ليلتين أو ثلاثاً، وحتى نأمن على حياتنا من دقيانوس.

مشلينيا (صائحاً متذمراً): لا أستطيع، لا أستطيع.

مرنوش: ولم أستطيع أنا، وأنا وليّ امرأة وولد أعزّهما وأعبدهما؟

مشلينيا: أنت تستبقي حياتك من أجلهما.

مرنوش: وأنت؟ ألا تريد أن تستبقي حياتك من أجل ...

مشلينيا: نعم يا مرنوش، لكن ها أنت ذا تراني لا أقوى على البُعد يوماً واحداً.

مرنوش: مشلينيا! احذر لنفسك ولنا! المذبحة لا تزال قائمة في المدينة، إني لن أحتمل نزقك بعد اليوم.

(يبدو شبح يتخبّط في الظلام.)

مشلينيا: من هذا؟

يمليخا: أنا الراعي يا مولاي.

مشلينيا: تفقدناك الساعة.

يمليخا: قمت أتلّمس الطريق إلى الباب، فلم أهدر إليه.

مشلينيا: اقعد بجوارنا. مذكنتنا إلى هذا الكهف وأنت صامت، كأنك لا تأنس بنا!

مرنوش: ما اسمك أيها الراعي؟

يمليخا: اسمي يملبخا يا مولاي.

مشلينيا: لماذا تدعوننا دائماً بـ «يا مولاي»؟

يمليخا: وبماذا أدعو صاحب يمين الملك وصاحب يساره؟

مرنوش: عجباً! .. من أنباك أننا صاحباً الملك؟!

يمليخا: وهل يُجهل الوزيران؟!

مشلينيا: أرايتنا من قبل؟

يمليخا: كثيراً.

مرنوش: أين؟

يمليخا: بمدينة طرسوس، في ساحة مصارعة السباع. كنتما تحوطان الملك في شرفته، والأنظار ترمقكم والشفاه تهمس هذا الملك، وهذان مشلينيا ومرنوش.

مشلينيا: عرفتنا إذن ساعة جنناك نعدو نسألك ملجأً ومخبأً؟

يمليخا: لم أتبيّنكما أول الأمر. لكن سمعت أحكما يقول لصاحبه «إنهم في أثرنا يا مرنوش؛ فلنسرع.» فنّبّهني الاسم من ساعتى، فتركت غنمى، وجئت بكما إلى كهف الرقيم.

مشلينيا (بعد صمت): ألم نلّهِك عن غنمك يا يملبخا؟

يمليخا: لا بأس، إنها ترعى الكلاً آمنة، ولا يعلم أحد أنها لمسيحي.

مرنوش: أنتَ أيضاً كنت تخفي دينك؟

يمليخا: نعم يا مولاي.

مشلينيا: يملخا! كلمة «مولاي» تؤذي سمعي، إنا هنا إخوة ومسيحيون فلا موالى ولا عبيد.

مرنوش: هل لك أهل يا يملخا؟

يملخا: ليس لي إلا قَطمير؟

مشلينيا: من هو قَطمير؟

يملخا (يُشير إلى الكلب): كلبى هذا.

مرنوش: أنتَ إذن أسعدنا حالًا.

(صمت ...)

يملخا (في تردّد): لو أجرؤ على السؤال ..

مشلينيا: سل عمّا شئتَ يا يملخا، ولا ترهب أمرًا.

يملخا: مذ رأيَتما راكضين هربًا من المذبحة حدَسْتُ وعجبت، ولكن أذهلني أمر نجاتكما عن كل شيء.. وأتينا الكهف، فسكنت إلى نفسي أفكّر في أمركما حتى دهمني نوم ثقيل لم أصحّ منه إلا الساعة، وكأن بأضلعي كسرًا ..

مشلينيا: ما الذي حيّرَكَ من أمرنا؟

يملخا: دقيانوس عدو المسيحية ما كان يعلم أن وزيريه مسيحيان!

مرنوش (في اندفاع مقصود): وهو لا يعلم كذلك أن ابنته مسيحية .. هذا الأمر بذبح المسيحيين.

يملخا (في استغراب): ابنته؟ الأميرة بريسكا؟!

مشلينيا (في صيحة عتب ولوم): مرنوش!

مرنوش: وأي حرج أن أخبر يملخا بهذا؟ إلا أن أكون ذكّرتُ قلبك يا مشلينيا ..

يمليخا: معذرة يا مولاي! أنا لم أطلب العلمَ إلا بأمر واحد؛ كيف عرف الملك
سركما؟ أمكيدة، أم وشاية؟

مرنوش: أخبره أنتَ يا مشلينيا ..

مشلينيا: أريد الخروج من هذا المكان.

مرنوش: أيضًا؟ يا لمصيتي بك!

مشلينيا: قلت لك لا أستطيع المكث هنا يومًا آخر.

مرنوش: أيها النزق! أما كفاك أنك أوقعتنا فيما نحن فيه؟

مشلينيا: إنك حاقِد عليّ!

مرنوش: بل أحمد الله على أن رسالتك المشئومة لم يكن بها غير اسمينا! (مشلينيا
لا يجيب) نعم .. إنها، من سوء حظي، الرسالة الأولى والأخيرة.

مشلينيا: من سوء حظك .. حقيقة.

مرنوش: طالما حذرتك الكتابة إلى بريسكا.

مشلينيا: صه!

مرنوش: لكنك هذه المرة قد ذهب رشدُك دفعة واحدة .. فكتبت ثم دفعت الرسالة
إلى وصيفة غَيْرِي تضرر لكما الشر .. ألا تذكر أنني نبهتك يومًا إليها وقد لحظت منها
أشياء. أولم تجد رسولًا سوى هذه المرأة؟ (مشلينيا لا يجيب) يا لقلّة الحذر! أولم
تخبرني أنك قبل الرسالة المشئومة بقليل أهديت إلى بريسكا يدًا بيد صليبا صغيرًا من
الذهب استصنعه لها؟ .. فماذا عليك لو أنك أعطيتها الرسالة كذلك يدًا بيد؟ (مشلينيا لا
يجيب) ولكنك تزعم أنك لم تستطع، فلقد كتبتها بعدئذٍ على عجل .. نعم، كي تُخبرها
أنك ذاهب بصحبة مرنوش تصلي سرًّا صلاة الفصح وتذكرها في الصلاة! (مشلينيا لا
يجيب) بصحبة مرنوش!

مشلينيا: نعم كلمة لو لم أخطأها ..

مرنوش: لكنك نجوت بجلدي.

مشلينيا: أجل كنت نجوت بجلدك.

مرنوش: ولما كنت خسرت مكاني عند الملك. ولما جئت أحطم عظامي على أرض هذا المكان الموحش هذه الليلة. ولما تركت امرأتي وولدي وحدهما في عذاب القلق وسط هوجاء المذبحة.

يمليخا (بعد لحظة صمت): مولاي! أوتركت أهلك في الخطر؟!

مرنوش: أحمد الله على أن ليس أحد يعلم أنهما مسيحيان، ولا أنهما يمتنان إليّ بصلة، إن أمر زوجي سر لا يعرفه غير ثلاثتنا الآن. ثم إنني أخفي امرأتي وولدي عن الناس في بيت منفرد منذ سنوات. كلا .. لا خوف عليهما .. لقد عصفت قبل اليوم مذابح ومجازر فلم يمتد إليهما أذى.

يمليخا: ذلك من فضل المسيح.

مرنوش: قل هو سوء المصادفة أن يظهر سرنا للملك، ولمّا يمض يومان على أمره بذبح المسيحيين.

يمليخا: نعم إنني أتخيّل مبلغ غضبه.

مرنوش: قيل إنه جعل يجار، والرسالة في يده يتلوها ضاحكاً ضحكات مخيفة، ونادى ابنته، وأطلعها عليها وهو يصيح بمن حوله أن أعدوا أقفاص السباع الضارية، فليسوف نُقدّم لها وليمة لا تنساها.

يمليخا: يا للهول ..!

مرنوش: لو لم تتسل الأميرة بريسكا إلى باب القصر تنتظر أوبتتنا من صلاة الفصح لتدعونا إلى الفرار ..

يمليخا: هو المسيح شاء لكما النجاة.

مرنوش: نعم .. ولكن أيّة نجاة هذه التي تفصل بيني وبين امرأتي وولدي؟ آه! كلما أذكر ابني ينهض هذا الصباح ولا أقبله ..

يمليخا: كم تُحب أهلك!

مرنوش: إني إنما أحيا بهما ولهما ..

يمليخا: صبرًا! إن رحمة الله قريب.

مرنوش: حقيقة! قرب السماء من الأرض! تلك الرحمة التي لا تسعف إلا من يستطيع الانتظار!

يمليخا: لا تسخر .. إن الله حق ..

مرنوش: لا شأن لله بنا ها هنا. نحن اللذان أوقعنا بنفسينا في التهلكة .. ومع ذلك .. فإني ما أوقعت نفسي.

يمليخا: كل شيء على هذه الأرض بأمر الله.

مرنوش: إلا ما نحن فيه .. فقد حدث بفعل إنسان.

يمليخا (مستكراً): أستغفر الله! هذا كلام لا يلفظه مؤمن!

مشلينيا (يُحاول النهوض فتؤلمه عضلاته): آه!

مرنوش: إلى أين؟

مشلينيا: سيذهب هذا الإنسان كي يُصلح فعلته.

مرنوش: ويحك! ماذا عساك تصنع؟

مشلينيا: سأذهب إلى الملك تَوًّا وأقول له «إني جنيت على مرنوش ظُلْمًا، وإن اسمه في الرسالة لا يعني شيئًا .. وها أنا ذا أقدم حياتي.»

مرنوش: اقعد .. وكفى هذرًا! قل إنك ذاهب لترى حبيبتك.

مشلينيا: وا أسفاه!

مرنوش: علامَ تأسف؟

مشلينيا: ما كنت أعرفك سيئ النفس بهذا المقدار!

مرنوش: كفى، اقعد، ولا تكن سببًا في نكبة أخرى. مهما تَقَلَّ للملك فإنه لا يُصدِّقك، وربما حملك بالإرهاب والتعذيب على الإخبار بمكاني.

مشلينيا (يعود إلى القعود في قنوط): يا إلهي! ماذا أستطيع لك إذن؟

يمليخا: دع الأمر للمسيح.

مشلينيا: ليت المسيح يعلم بما يُوقِّر ضميري!

يمليخا: أوتَشَكُّ في أنه يعلم؟! أستغفر الله! أعتقد أنه يعلم، وأنه سيُخَفِّف عنك.

مشلينيا: متى؟

يمليخا: متى! اللهم رحماك! إنا لا نملك حقَّ سؤال كهذا. إنما ينبغي لنا أن نعتقد.

مشلينيا: إني أعجب بإيمانك يا يملخا.

يمليخا: إني أومن بالمسيح لأنه حق، ولا يمكن أن تكون هذه البشرية قد بذلت أرواحها وسفكت دماءها من أجل شيء غير الحق.

مشلينيا: أولدتَ مسيحيًا، أم اعتنقت الدين على كبر؟

يمليخا: بل وُلِدْتُ مسيحيًا ..

مشلينيا: مثلي إذن.

يمليخا: نعم. ولكن الإيمان الحقيقي، إيمان اليقين والافتناع لم يُضَيَّ كل نفسي إلا من يوم أن سمعت ذلك الراهب يتكلم تحت أسوار طرسوس.

مشلينيا: أي راهب؟

يمليخا: كان ذلك منذ خمسة أعوام إذ بلغت الثلاثين. وما كنت بعد أفكر في غير غنمي. وكنت أدين بالمسيحية اسمًا بحكم الوراثة وحدها لا عن شعور واقتناع، حتى كان يوم أن ذهبت إلى مدينة طرسوس في بعض شأني، فلمحت خارج أسوارها راهبًا يتكلم في جمع صغير تُخفيه عن الأعين خرائب قديمة وأحجار. فاقتربت وطفقت أصغي، وإذا بي كأني انقلبت إنسانًا آخر، وكأن عينيَّ تريان ما كانتا عنه غافلتين.

مشلينيا: ماذا كان يقول ذلك الراهب؟

يمليخا: لست أذكر شيئًا مما قال، لكنني لن أنسى ما شعرت به إذ ذاك؛ إحساس لم يعترنني في حياتي من قبل إلا مرة؛ إذ كنت أهبط الجبل ساعة غروب، فأشرفت على منظر بالخلاء لم أر أجمل منه، فلبثت ليلتي أفكر وأستذكر أين رأيت هذه الصورة من قبل، أفي الطفولة، أم في الأحلام، أم قبل أن أولد؟! إن هذا الجمال على غرابته ليس مجهولًا عندي! وقمت في الفجر فذكرت صورة البارحة. وفجأة برقت في رأسي فكرة هذا الجمال كان موجودًا دائمًا منذ الأزل منذ وجدت الخليقة. هذا الإحساس بعينه هو ما شعرت به وأنا أصغي إلى الراهب. إن كلامه الذي أسمعته لأول مرة ليس، مع ذلك، جديدًا عندي. أين سمعته ومتى؟ أفي الطفولة؟ أفي الحلم؟ أقبل أن وُلدت؟ وتولدت في نفسي عقيدة أن هذا الكلام هو الحق؛ إذ لا أتصور بدء الوجود بدونه ولا انتهاءه بدونه ..

مشلينيا (في شبه دهش): مرنوش! أسمع؟

مرنوش: نعم.

مشلينيا: ما تقول في ذلك؟

مرنوش: أقول إن هذا الراعي يتكلم هراءً ولا أفهم ما يقول.

مشلينيا: أنت لا تفهم شيئًا سوى أنك غبت ليلة عن امرأتك وولدك.

مرنوش (في شبه تهكم): وأنت ماذا فهمت منه؟!

مشلينيا: فهمت أننا بعيدان عن الله. وأن قلبينا مشغولان بغير الله.

مرنوش: وأي بأس في ذلك؟

يمليخا (مستكراً): اللهم رُحماك!

(ينهض.)

مرنوش: إلى أين أيها الراعي المُتسك؟

يمليخا (في تردّد): إلى .. إلى .. إني أحس الجوع. ألا أذهب إلى المدينة تحت ستر الظلام أحضر طعاماً لكما ولي؟

مرنوش (في ارتياب): وهل ستعود إلينا؟

يمليخا: إني أترك قطميراً هنا.

مرنوش (يُشير إلى الكلب في دهشة): انظر .. انظر! ها هو ذا ينهض. عجباً! أترى شبهه كيف يتلوّى في الظلام؟ وكيف يتمطّى؟! يُخَيِّلُ إِلَيَّ أن كل من نام في هذا الكهف يصحو وكأن أعضاءه متكسرة. (لحظة) صدقت يا يملخا. ينبغي أن تشتري لنا طعاماً. لقد ذكرتنا بالجوع، إني أحس كأن معدتي خاوية خالية حتى من الهواء! وأنت يا مشلينيا ألسنت جوعان؟ (مشلينيا لا يجيب) ألا تجيب؟ لعلك مشغول حتى عن الجوع! (بعد لحظة) يُخَيِّلُ إِلَيَّ أنني لست جوعان كما ينبغي، إني أحس كأن عضلات بطني قد صدئت أو نامت هي الأخرى وتحتاج إلى منبه. يملخا! كم تحسن صنعاً لو شَرِيتَ لنا ما يُحرِّك شهوتنا للطعام. هل معك نقود؟

يمليخا: معي ..

مرنوش (وهو يدس يده في جيبه): بل انتظر! كانت معي أمس فيما أنكر دراهم من الفضة. إنها لم تنزل في جيبِي، خذ ..

(يمليخا يأخذ منه النقود ويخرج.)

مشلينيا: أتدري يا مرنوش ما يجول برأس هذا الراعي الآن؟

مرنوش: ماذا؟

مشلينيا: ألا ترى أنه أسرع إلى مغادرة المكان، لأنه لم يُطق سماع كلامك؟

مرنوش: حسنًا فعل.

مشلينيا: نعم. ولعله أصاب في رأيه. أنا أيضًا أشك ..

مرنوش: فيم تشك؟

مشلينيا: حبنا لأنفسنا أقوى من حبنا لله. وأكاد أرى أنا لا نثق بالله كثيرًا!

مرنوش: ألم نُصلِّ له؟

مشلينيا: نعم، كي تسأله الخير لامراتك وولدك.

مرنوش: وأنت لبريسكا.

مشلينيا: كنا نصلي له على الأقل .. ولكن مذ جبئنا الكهف، فنحن لا نُفكر في غير من .. (مستدركًا) فأنت لا تفكر في غير من تحب. إذن أنت ناغم عليّ وعلى الله والمسيح، وعلى كل من سبب لك الفراق. فلتنقم عليّ يا مرنوش ولا بأس، أمّا الله والمسيح ...

مرنوش: لست ناغمًا عليك يا مشلينيا ولا على الله والمسيح .. لأنني لست أفكر في أيكم الآن.

مشلينيا: رأيت؟ هذا عين ما أريد قوله. إنا لا نفكر في الله.

مرنوش: مشلينيا! أتصغي إليّ؟

مشلينيا: نعم.

مرنوش: إن الله وقد خلق لنا قلوبًا قد نزل عن بعض حقه علينا!

مشلينيا (بعد تفكير يصيح في فرح): قد تكون صادقًا في هذا يا مرنوش .. (في شك) لكن ..

مرنوش: ماذا؟

مشلينيا: الراعي. هذا الراعي الذي نبّهنا إلى الله الآن. ألا ترى كيف يذكره والمسيح في كل وقت؟!

مرنوش: إن صاحبك الراعي لخليّ. فما يضيره أن يمنح قلبه كله لله أو للشيطان.

مشلينيا (في تأمل أو كمن يقنع نفسه): أصبت .. (صمت.)

مرنوش (فجأة): ذهب يملixa الراعي؟

مشلينيا: ماذا تريد منه؟

مرنوش: لو أنني وجّهته إلى بيتي في طريقه يرى زوجي وولدي وينبئهما بخبري وبقرّب أوبتي؟

مشلينيا: إنه لا يعرف منزلك. ما تقول لو ذهبت أنا؟ إن مرآي وحده قد يملؤهما اطمئننا.

مرنوش (في تردّد): أخشى أن ترتكب غلطة فتفسد علينا الأمر.

مشلينيا: لا تخش شيئًا.

مرنوش: آه! ستذهب طبعًا بعد ذلك إلى حيث تراها أيها الخبيث!

مشلينيا: وأي ضرر في هذا؟ إنها تنتظرني هي أيضًا، تنتظر مني خبرًا. أتذكر يوم وقفت خلف الباب تحملنا على الهرب؟ أتدري ما قالت لي وهي تؤدّعني وأنت تجذبني

من ذراعي تستعجلني؟ لقد قالت إنها سترقبني من نافذتها بعد ثلاثة أيام عند مطلع الفجر.

مرنوش: وهل انقضت بعدُ الأيام الثلاثة؟

مشلينيا: لا بأس، أذهب على كل حال أتجسّس وأعود.

مرنوش: وإذا لمحك أحد وعرف من أنت؟

مشلينيا: لا تخف، سأتسلل في الظلام ولا أري أحداً وجهي.

مرنوش (في عزم وقوة): كلا. في خروجك خطر.

مشلينيا (في غيظ كظيم): أتأبى عليّ؟ ..

مرنوش: نعم.

مشلينيا: ما أشد أثرتك!

مرنوش: أنا؟!

مشلينيا: نعم أنت.

مرنوش: يا للويل! أنسيت وشيكاً ما كنتُ لك دائماً؟ وما كنتُ لك في حبك هذا على

الأخص؟!

مشلينيا: إنك اليوم محوت كل شيء طيب من ذاكرتي.

مرنوش: لأنني أبديت بعض الحذر من نزق مُحب مثلك؟

مشلينيا: بل لأنك لا تفكر منذ جننا هنا إلا في نفسك وفيما يُمكن أن يُعرّضك

للخطر.

مرنوش: وأنت لا تفكر إلا في الذهاب إلى من تحب ولو جلبت على من معك

الوبال! فأينما شديد الأثرة؟!

مشلينيا: أنت.

مرنوش: أنا أيضًا؟ ما أعمى عين المُحب وما أكفره!

مشلينيا: قل هذا لنفسك أنت كذلك على الأقل.

مرنوش: إني أرى عيوبي ولا أكفر بفضل إنسان.

مشلينيا (في تهكُّم): لو أن الراعي هنا لأخبرك أنك كفرت على الأقل بالله والمسيح.

مرنوش: على الأقل؟

مشلينيا: نعم. لأنني لا أود أن أذكرك بأحد آخر ..

مرنوش: إنك لفتى سيئ النفس!

مشلينيا: أنا؟!

مرنوش: نعم. إني لست مثلك يسهل محو كل شيء طيب من ذاكرتي؛ إني لا أستطيع أن أنسى يا مشلينيا أنك الوحيد الذي عاونني في زواجي الخفي .. ولازمي في كل ظروف الحرجة التي مرّ بها تأسيس هذه الأسرة المخبوءة .. إني لا أستطيع أن أنسى أنك كنت تفرش معي المنزل وتحمل إلينا على ذراعيك ليلاً الخضر والفاكهة إذ كنا لا نأتمن خادمًا ولا عبدًا على سرّنا. ولا أنسى يوم وُلِدَ ابني أنك جعلت تحوك أثوابه الصغيرة وقلانسَه بيدك قبيل نزوله إلى هذا العالم .. أجل، لولاك ما كنتُ أستطيع أن ...

مشلينيا: لا أريد أن تذكر هذا. أريد فقط أن تذكر أنك اليوم أضفتَ إلى ما أنا فيه ألم وخز الضمير بترديدك وتلميحك في كل لحظة أني سبب مصيبتك ..

مرنوش (في عتب وتأنيب): أهذه أول مرة عرّضت فيها نفسي للخطر من أجلك؟ (مشلينيا لا يجيب) ألا تعترف مرة بما فيك من عيب المحبين؟! العمى والكفر والنسيان. أنت كذلك على الأقل! قل.

مشلينيا (يهذا): أعترف أنك عرّضت نفسك للخطر من أجلي حقيقة.

مرنوش: وإذن؟ أفلا تسمح لي ببعض التبرّم البريء في ساعة ضيقي؟!

مشلينيا: وأنا؟ متى كفرت بك؟

مرنوش: إن الحب ليبتلع كل شيء حتى الصداقة وحتى الإيمان.

مشلينيا: حتى الإيمان؟!

مرنوش: لأنه هو نفسه إيمان أقوى من كل إيمان.

مشلينيا: أدرك ما تعني ..

مرنوش: ماذا أعني؟

مشلينيا: لولا امرأتك المسيحية لما كنت اعتنقت دين المسيح .. أنت الوثني المؤمن بالوثنية وساعد دقيانوس الأيمن في مذابحه السابقة!

مرنوش: ولولاك أنت لما اعتنقت الأميرة بريسكا دين المسيح وهي المؤمنة بدين أبيها دقيانوس!

مشلينيا (يكتّم اغتباطه): مرنوش! أتراها حقيقة تركت دينها لهذا السبب؟

مرنوش: وهل في هذا شك؟

مشلينيا: أنت دائماً تفهمني ذلك.

مرنوش: لأنك لا تريد أن تفهم أيها الأحق.

مشلينيا (مستذكراً في فرح): نعم. إني لن أنسى تلك الليلة التي طالما حدّثتك عنها. ليلة أن كانت في ثياب بيضاء تخطر في بهو الأعمدة حيث موعدنا بعد سكون القصر. لقد قلت لها وقتئذٍ في غير حذر «إنك ملك من ملائكة السماء!» فنظرت إليّ دهشة وسألت عن معنى الملك، فقلت لها في ارتباك هو اسم في المسيحية لمخلوقات أسمى

وألف من مخلوقات الأرض، ثم صمت لحظة وقلت لها مُموّها: «ليتني كنت مسيحيًا!» فقالت «لماذا؟»، قلت «حتى أستطيع أن أكون خطيبك أمام الله، وأن يكون بيننا عقد مُقدّس لا يستطيع أحدنا الحنث به.» فقالت «أهذا في المسيحية؟» وصمتت لحظة ثم قالت في سذاجة وحياء «ليتني أنا أيضًا كنت مسيحية.»

مرنوش: وبعدئذٍ بقليل كنت ببابي كالمجنون فرحًا.

مشلينيا: نعم. ومن فورك أخذت تفكر لي وتدبر الأمور ..

مرنوش: وكان أن ذهبتما سرًّا إلى الراهب كي يُدخلها في الدين.

مشلينيا: بفضل رأيك ومعونتك. مرنوش! حقًا لست أنسى حرج موقفك يومئذٍ وقد لبثت بعد ذهابنا ترقب عودتنا وتقول لدقيانوس، إذ يسأل عن ابنته، إنها مع وصائفها في الحمام، ونقول لوصائفها القلقات هي عند أبيها. أجل! غير أنني لا أرتعد لذكرى شيء مثلما أرتعد لذكرى دقيانوس وقد فاجأني مرة في بهو الأعمدة أنتظر بريسكا وفي يدي الكتاب المُقدّس. إني لم أزل أسمع صوت الملك وهو يقول لي وأنا من الهلع لا أعني «ما هذا الكتاب بيدك؟» وهنا تقدّمت أنت يا مرنوش وخطفته من يدي وقلت مُجيبًا «هذا كتابي يا مولاي نسيته في هذا البهو!» عندئذٍ أدركت أنك مستعد أحيانًا للهلاك من أجلي.

مرنوش: لا من أجلك، بل من أجل مُحب وخطيب أردت أن أحفظه لخطيبته.

مشلينيا: شكرًا لك يا مرنوش .. لكن ...

مرنوش: لكن ماذا؟

مشلينيا: لكنني مع ذلك لا أشكرك على ما كان منك اليوم.

مرنوش: أيضًا؟

مشلينيا (في تأمل): نعم .. (بعد لحظة) لست أدري .. ما أعجب تركيب الإنسان! فينا القوة أحيانًا إلى حد العظمة والتضحية، وفينا الضعف أحيانًا إلى حد الحقارة

والأنانية.

مرنوش: كل هذا لأنني أمنعك اليوم من الذهاب إليها؟!

(صوت صياح يدوي بين تجاويف الكهف.)

مشلينيا (مرهفًا أذنه): صه!

مرنوش: ما هذا؟

الصوت (يقترّب ويصيح): أيها الوزيران!

مرنوش: مَنْ أنت؟

الصوت: أنا يملixa.

مرنوش: الراعي؟ ولماذا تصيح هكذا؟

يمليxa: أنتما في الظلام تنتظران الفجر، والشمس في كبد السماء!

مشلينيا: أين هذا؟

يمليxa: خارج الكهف! ولقد عثرت بالباب فإذا هو دوننا ولا نعرف. ولكن .. شيء عجيب .. إن الحرارة والضوء لا يدخلان إلينا منه .. كأنما الشمس تميل عنه في ذهابها وإيابها ..

مرنوش: أهذا كل ما فعلت؟ أين الطعام؟

يمليxa: لو تعلمان ما رأيت وما سمعت ..

مرنوش: تكلم!

يمليxa: ما كدت أسير خطوتين حتى رأيت أمامي فارسًا يلبس لباسًا غريبًا وكأنه صيَّاد فأبرزت له ممًا معي من فضة عارضًا عليه شراء بعض صيده فما تبَيَّنني حتى كأنه امتلأ رعبًا ولكز فرسه يريد الركض فأمسكت بزمام الدابة وأوقفتُ الرجل وأنا

أُلَوِّحُ لَهُ بِالنُّقُودِ. وَفِي النِّهَايَةِ أَخَذَ مِنِّي قِطْعَةً فِي حِذْرِ وَجَعَلِ يَتَأَمَّلُهَا وَأَنَا أَرْقُبُهُ، وَإِذَا هُوَ يَقُولُ فِي تَلَعَثٍ وَخَوْفٍ وَعَجَبٍ وَهُوَ يُقَلِّبُهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ «دَقْيَانُوسُ!» ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مَتَشَجِّعًا وَقَالَ لِي «أَمْعَكَ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ؟» فَأَخْرَجْتَ لَهُ كُلَّ مَا مَعِيَ، فَقَالَ «أَيْنَ وَجَدْتَهُ؟»، قُلْتُ «مَاذَا؟»، قَالَ «هَذِهِ النُّقُودُ الْقَدِيمَةُ .. هَذَا الْكَنْزُ؟!» فَحَسَبْتُ بِالرَّجْلِ مَسًّا فَخَطَفْتُ مِنْهُ قِطْعَتِي وَابْتَعَدْتُ عَنْهُ وَهُوَ يَتْبَعُنِي بِنَظَرَةٍ عَجَبٍ وَاسْتِطْلَاعٍ وَخَوْفٍ، ثُمَّ لَكَزَ فَرَسَهُ وَاخْتَفَى عَنْ بَصَرِي ..

مرنوش: صدقت، إن بصاحبك مسًّا.

مشلينيا: لا يا مرنوش .. لا تتعجل ..

مرنوش: ما بك؟

مشلينيا: لقد داخلني شك.

مرنوش: في ماذا؟

مشلينيا: في زمن إقامتنا بهذا الكهف. ألا تذكر أنني أتيتُه حليقًا؟ ها أنا ذا الآن ولحيتي مُرسلة وشعري يتدلى. ما تنبَّهت إلى ذلك إلا الساعة! وأنا أحك رأسي بظفري ..

يمليخا: نعم. نعم. أنا كذلك لحظت وأنا أُخْرِجُ قِطْعَةَ الْفِضَّةِ لِلرَّجْلِ أَنْ أَظَافِرِي طَوِيلَةً عَلَى هَيْئَةٍ لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ! وَمَنْ يَدْرِي؟ لَعَلَّ الرَّجْلَ ارْتَاعَ مِنْ مَنَظَرِ شَعْرِي الْمُبْعَثِ الْأَشْعَثِ. نَحْنُ هُنَا فِي الظَّلَامِ لَا نَلْحِظُ شَيْئًا وَلَا يَرَى أَحَدُنَا الْآخَرَ.

مشلينيا: تُرى أَلَبِثْنَا أَسْبُوعًا وَنَحْنُ لَا نَشْعُرُ؟!

مرنوش (يَتَلَمَّسُ رَأْسَهُ): صدقتكما! أنا أيضًا لا أحسبني جئتُ الكهفَ بهذا الشعر كله في رأسي ولحيتي. هذا عجيب! انظر يا مشلينيا. لو كنتَ تُبْصِرُ فِي الظَّلَامِ. أَكَادُ بِهِذِهِ اللَّحْيَةِ أَشْبَهَ الْقَدِيسِينَ عَلَى مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ ..

يمليخا: لعلنا مكثنا شهرًا.

مرنوش: ويحك! شهرًا؟! وأين كنا طول هذه المدة؟

يمليخا: كنا نيامًا.

مرنوش: أهذا كلام عاقل؟

يمليخا: ولمَ لا؟ إني سمعت من جدتي ووالدتي وأنا صغير أن راعيًا اعتصم بغار من سيل هائل وكان مؤمنًا بالله والمسيح فنام شهرًا حتى انقطع السيل فصحًا وخرج سالمًا كما دخل دون أن يشعر بالزمن.

مرنوش: تلك أساطير عجائز.

يمليخا: إني أومن بهذه الأسطورة ولا أرى فيها عجبًا. لقد قيل إن الجثث لا تفسد سريعًا في الغار لرطوبة المكان فكيف والشهر ممطر وكيف وإرادة الله والمسيح تتشاء النجاة لذاك المؤمن؟!

مرنوش (نصف ساخر): وفي حالتنا هذه! ما تقول؟ أهو المطر والسيل؟ أم إرادة الله والمسيح؟

يمليخا: في حالتنا هذه كذلك .. ألم أقل إني رأيت الشمس تميل عن الكهف على نحو عجيب، أليس ذلك كي لا تؤذي حرارتها أبداننا؟ هي إرادة الله والمسيح شاءت هذه الأعجوبة لتُنَجِّي المؤمنين.

مرنوش (في تهكم خفيف): المؤمنين؟ أشكرك يا يملخا! أظن أنه لولا وجودك معنا ما كانت إرادة الله والمسيح شاءت لنا أية أعجوبة!

مشلينيا (ناهضًا فجأة): مرنوش!

مرنوش: إلى أين يا مشلينيا؟

مشلينيا: مهما يكن من أمر فلا ريب أن الأيام الثلاثة قد انقضت.

مرنوش: تعني أنك ذاهب إلى ...

مشلينيا: ولن تمنعني قوة في الأرض.

مرنوش (في تهكم خفيف): ولا في السماء؟!

(صوت ضجة خارج الكهف.)

يمليخا: صه! أسمعان؟

مرنوش: ما هذا أيضًا؟

يمليخا (مرهفًا الأذن): هذا صوت أناس عديدين!

مرنوش (ناهضًا بقوة): ويلنا! هلكننا ..

مشلينيا: هلكننا!

مرنوش: نعم، هؤلاء ولا ريب رجال دقيانوس جاءوا يلتمسوننا. أرايت يا يملخا؟
إن هذا الفارس المخبول قد ذهب ودل على مكاننا. ألم أقل لكم لا خروج قبل أن
نستوثق من الأمان؟ وأنت يا مشلينيا الذي كنت الآن على وشك الخروج!

(صوت الناس في الخارج يقترب.)

الناس (صائحين في الخارج): يا صاحب الكنز! ابرز إلينا يا صاحب الكنز! لا
تخف! اخرج لنا ولا تخف!

مرنوش: أي كنز؟! ومن هو صاحب الكنز؟!

يمليخا (يُشير بالصمت هامسًا): صه! صه!

مشلينيا (همسًا): أخشى أن يدخلوا علينا.

الناس (تقترب من باب الكهف): هذا كهف! هذا باب كهف! (فئة أخرى من الناس)
لكنه مظلم! .. إنه مظلم ..! (فئة أخرى) أحضروا المشاعل! أوقدوا المشاعل!

مرنوش (همسًا): ما العمل؟

مشاينيا (همسًا): إنا مُحاصرون!

يمليخا (همسًا): فلنُسَلِّم أنفسنا لله والمسيح!

(لا تمضي لحظة حتى يشع في داخل الكهف ضوء، ثم يشتد اللغط ويدخل الناس هاجمين وفي أيديهم المشاعل ولكن .. ما يكاد أول الداخلين يتبيّن على ضوء المشاعل منظر الثلاثة حتى يمتلئ رعبًا ويتقهقر وخلفه بقية الناس في هلع وقد اضطرب نظامهم وهم يصيحون صيحات مكتومة.)

الناس (في تقهقر ورعب): أشباح! .. الموتى! .. الأشباح! ..

(ويخرج الجميع في غير نظام تاركين بعض مشاعلهم. ويخلو المكان للثلاثة وكلبهم والضوء منتشر، ولكنهم ساهمون جامدون كالتماثيل كأنما أربعتهم هم أنفسهم هاتان الكلمتان «أشباح وموتى»، أو كأنهم لا يفهمون ممّا رأوا وسمعوا شيئًا.)

(ستار)

الفصل الثاني

(بهو الأعمدة. الأميرة بريسكا بين وصائفها وفي يدها كتاب ...)

الأميرة (متسائلة): أين مُؤدبي غالياس؟ لم أره هذا النهار.

(يبدو المُؤدّب غالياس مقبلاً على عجل وهو شيخ طاعن في السن أبيض الشعر. وتتصرف عندئذٍ الوصائف وتبقى الأميرة ومُؤدّبها.)

غالياس (وهو يلهث): ها أنا ذا أيتها الأميرة!

الأميرة: عجباً! مالك تلهث والعرق يتصبّب من جبينك؟!

غالياس: كنت بالمدينة يا مولاتي، ولو لم أذكرك الساعة لما جئت ركضاً!

الأميرة: ماذا بالمدينة؟ أبي كذلك كان يطلبك الساعة في اهتمام غريب.

غالياس (يتحرّك بسرعة): الملك يطلبني؟

الأميرة (مستوقفة): انتظر! أترى ما بيدي؟ كتاب الأحلام. إني رأيت الليلة حلمًا

عجيبًا يا غالياس؟

غالياس: خيرًا يا مولاتي؟

الأميرة: رأيت كأنني دُفنت حية.

غالياس (مُفكّرًا لحظة): يا إلهي! أيُمكن أن يكون لهذا صلة بما شاع اليوم في

المدينة؟!

الأميرة: ماذا شاع بالمدينة؟

غالياس: أن كنزاً من عهد دقيانوس مدفون في كهف بوادي الرقيم.

الأميرة (مستذكرة): دقيانوس؟!

غالياس: نعم دقيانوس صاحب عصر الشهداء. ألم أُحدِّثكِ بخبره فيما حدَّثتكِ من قديم التواريخ؟

الأميرة: أليس هو أب تلك الأميرة التي تسميت باسمها؟

غالياس: ها أنتِ ذي قد ذكرتِ يا مولاتي. نعم هي ابنته .. تلك الأميرة القديسة التي تنبأ لك العراف ساعة ميلادك بأنكِ ستشبهينها خلقاً وإيماناً.

الأميرة: أوترى هذا العراف قد صدق؟ أوتراني أشبهها حقيقة؟ إني لا أكاد أعرف شيئاً يا غالياس. وأنت لا تُريد أن تُطلعني على تاريخها، ما أقساك! إنك لا تحس مبلغ رغبتني في معرفة تلك التي يزعمون أنني أشبهها ..!

غالياس: أقسم بالمسيح يا مولاتي أنني أطلعتك على كل ما أعرف عن تاريخها وكل ما وصل إلى علمنا من عهدها. ألم أقل لك إنها كانت مسيحية شديدة الإيمان بالله والمسيح في عصر كانت المسيحية فيه مضطهدة مغلوبة. ألم أقل إنها ظلت تخفي دينها عن أبيها الوثني الظالم. وإنها ظلت راهبة تأبى الزواج حتى استشهدت عذراء في سن الخمسين؟!

الأميرة: إنك قلت لي مرة يا غالياس إنها سُمعت تقول كلما أرغموها على الزواج إنها مرتبطة بعهد مقدس لن تحنث به ..

غالياس: أصبتِ يا مولاتي.

الأميرة: ترى مع من هذا العهد المقدس؟

غالياس: مع الله يا مولاتي، مع من غير الله تريدين؟ ..

الأميرة: كنت أحسبه مع من اختاره قلبها.

غالياس (مستنكرًا): حاشا لله يا مولاتي! أستغفر الله! أويختار قلبها غير الله؟

الأميرة: وما يمنع؟ إن قلب المرأة يتسع دائماً لله وغير الله. إنك لا تعرف قلب المرأة يا غالياس، لأنك أحمق!

غالياس: مولاتي! إنني اطلعت على تاريخها كله.

الأميرة (في تهكم): ولم تفهم منه شيئاً، غير ما يمكن أن يفهمه شيخ مثلك!

غالياس: إنني أفهم الحقيقة. لقد كانت قديسة لا ريب فيها. وبالأمس عثرت على سفر قديم ورد فيه أن إحدى وصائفها كانت تسمعها دائماً تقول «إنني أنتظر كل يوم .. وسأنتظر ولن أمل الانتظار حتى يعود.»

الأميرة: رأيته؟ من تنتظر؟ من الذي يعود؟

غالياس: المسيح يا مولاتي، تنتظر يوم عود المسيح من السماء.

الأميرة: إذن كانت قديسة حقيقية؟

غالياس: وهل في هذا شك؟!

الأميرة: لا شك أن هذه القديسة كانت تُفضّل أن تكون امرأة، لو أنها استطاعت.

غالياس: لا تتهكمي يا مولاتي. أتوسل إليك أن لا تتهكمي على جدتك العظيمة!

الأميرة (وهي تعبت بصليب في عنقها): أصحيح يا غالياس أن هذا الصليب الذهبي الذي أحمله في جيدي منذ الطفولة كان صليبيها؟

غالياس: نعم يا مولاتي. إنه أحد مخلفاتها الثمينة. ويُقال إنها رأت في المنام ذات ليلة أن المسيح يُقلدها إياه فاستيقظت فوجدته في عنقها فبُهِتت وتملكها فرح عصبي ظل مُلَازماً لها في فترات من حياتها حتى ماتت.

الأميرة: إنها ماتت في هذا البهو يا غالياس؟

غالياس: نعم. لقد كانت تُحب العزلة دائماً في هذا البهو. ولما احتُضرت في حجرتها طلبت في النفس الأخير أن تُحمل لتموت في بهو الأعمدة؟!

الأميرة: لماذا في بهو الأعمدة؟!

غالياس: من يدري يا مولاتي. من يدري؟

الأميرة: إذن هنا. في هذا البهو عينه .. وربما في هذا الموضع الذي نقف فيه الآن

..

غالياس: نعم .. هنا .. ماتت الأميرة القديسة بريسكا منذ ثلاثمائة عام!

الأميرة (بعد برهة صمت): ما أشد شغفي بخبر تلك الأميرة!

غالياس: من يدري يا مولاتي! قد تكونين أنتِ أيضاً كما كانت، وتصدق فيك نبوءة

العرّاف!

الأميرة (في تهكُّم): أنا .. قديسة؟! كل شيء إلا هذا.

غالياس: هذا ليس بكثير على ...

الأميرة: كلا. لست أريد. ليس هذا حلمي ..

(يُسمع صوت في الخارج.)

الصوت (في الخارج يُنادي المؤدب): يا غالياس!

غالياس (يستدير سريعاً ويهمس): الملك!

الملك (يدخل): يا غالياس! أسمعت الخبر؟

غالياس: نعم يا مولاي. خبر الكنز ..

الملك: بل الأشباح.

غالياس (وكذلك بريسكا): الأشباح؟!

الملك (لغالياس): ألم تذهب إلى الغار مع الناس؟ أين كنت إذن؟

غالياس: كنتُ أصغي مع الناس إلى حكاية الصيَّاد الذي جاء بالخبر وكنتُ على وشك الذهاب معهم إلى الغار، ولكنني فجأة تذكرت درس الأميرة.

الملك: لقد عاد هذا الصيَّاد الآن يدعو على فرسه ويروي عجباً إنهم أبصروا بالغار ثلاثة مخلوقات مفزعة الهيئة، أشعارهم مدلاة ويلبسون ملابس غريبة ومعهم كلب عجيب النظرات، فولوا منهم رعباً ..

بريسكا (خائفة): يا إلهي! مخلوقات مفزعة ..؟

الملك: لا تخافي يا بريسكا.

غالياس (مُفكِّراً): أممك أن يكون هذا؟!

الملك: ماذا ترى يا غالياس؟!

غالياس: ثلاثة رابعهم كلبهم! مولاي .. أممك أن يكونوا هم؟!

الملك: مَن هم؟

غالياس (كمن يخاطب نفسه): نعم .. نعم .. ثلاثة رابعهم كلبهم ..

بريسكا: مَن هم يا غالياس؟

غالياس: ألم أُحدِّثك يا مولاتي فيما حدَّثتك عن تاريخ عصر الشهداء أن فتية من أشراف الروم هربوا بدينهم من دقيانوس ولم يظهروا ولم يُعلَم عنهم شيء، وقد لبث معاصروهم ينتظرون أوبتهم وينشئون عنهم الأساطير مُؤكدين عودتهم .. ولقد قرأت كُتباً قديمة تنتبأ بيوم يظهرون.

الملك: هذا ما قاله شيخ كان بين الناس في الغار على رواية الصيَّاد.

بريسكا (في خوف وحب استطلاع): ماذا قال هذا الشيخ يا أبي؟

الملك: قال للناس عندما رأهم ورأى لباسهم إنهم ليسوا بأشباح موتى؛ لأن آباءنا وأجدادنا حدّثونا عن فتيتين من أصحاب دقيانوس هربا منه ولحق بهما راع وكلبه وأنهم اختفوا ولكنهم سوف يظهرون، وكلما جاء عصر ذكرهم الناس وانتظروهم ..

بريسكا: ولكن يا أبت .. ها قد أوشك أن ينساهم الناس في عصرنا هذا!

غالياس: أجل يا مولاتي .. إن القديسين لا يظهرون إلا في عصر يُنسَو فيه ..

الملك: أتؤمن إذن بهذا يا غالياس؟

غالياس (في حماسة وفرح): كل الإيمان يا مولاي. نعم، الآن لا ريب عندي في أنهم هم ولقد أظهرهم الله في عصرك السعيد يا مولاي لأنك مسيحي مؤمن بإله واحد ولأن عصرك عصر المسيحية الزاهرة.

الملك (في فرح): ما أسعد حظي لو أن ما تقول صحيح!

غالياس (في فرح كذلك): صحيح يا مولاي. هم، هم. ثلاثة رابعهم كلبهم القديس مرنوش، والقديس مشلينيا، والقديس يملixa، والكلب قَطمير، كما جاء في كتاب الراهبين.

بريسكا (في شبه رهبة): هذا عجيب! هذا عجيب يا غالياس! إني لا أستطيع أن أتخيّل هذا الذي تقول ..

غالياس (مستمرًا في فرحه وحماسه): إني حدّستُ منذ أن وصف الصيَّاد هذا الرجل الغريب الذي طلع عليه وأبرز له قطعة الفضة المضروبة باسم دقيانوس. أمّا الآن وقد علمت أنهم ثلاثة لا واحد ورابعهم كلبهم، فقد انطبقت أوصافهم على ما جاء في التاريخ فلا محل للحَدْس والريب.

بريسكا (في خوف وحب استطلاع): ولكن أين كانوا؟ وهل لبثوا أحياء طول هذا

الزمن؟!

الملك (مصادقًا): نعم يا غالياس أجب! أعتقد أنهم مكثوا بالغار أحياء أكثر من ثلاثمائة عام؟!

غالياس (بعد تفكير): ولمَ لا؟ مَنْ يدري؟ ألم يبلغك يا مولاي ما جاء بكتب الهند؟
الملك: ماذا؟ ..

غالياس: قصة في جزر اليابان تُدعى قصة أوراشيما.

الملك: وما دخلها فيما نحن فيه؟

غالياس: إنها تشبه قصة هؤلاء الفتية، ويظهر أنها وقعت حقيقة يا مولاي؛ لأن سكان تلك البلاد يؤمنون بها إيماننا بقصة فتية الكهف.

الملك: وهل ظهروا عندهم كذلك بعد اختفاء طويل ..؟

غالياس: أجل يا مولاي. مُدَوَّن في التقاويم الرسمية لملوك تلك البلاد أنه في السنة الحادية والعشرين من حكم الميكادو «يورياكو» خرج الفتى الصيَّاد «أوراشيما» من إقليم «يوشا» للصيد في قاربه ولم يعد. ولبت — دون أن يُسمَع عنه خبر — مدى حكم واحد وثلاثين ملكًا وملكة، أي مدى أربعة قرون .. وعندئذٍ تقول التقاويم الرسمية إنه في أثناء حكم الميكادو «جونجو» ظهر الفتى «أوراشيما» .. غير أنه ذهب وشيكًا مرة أخرى .. ولا يعلم أحد إلى أين ذهب.

بريسكا (مأخوذة، ثم بعد لحظة): وأين كان هذا الفتى الصيَّاد يا غالياس أثناء القرون الأربعة؟!

غالياس: لستُ أدري يا مولاتي. هذا مبلغ علمي بتلك القصة ..

بريسكا: إنك دائمًا كذلك يا غالياس سطحي العلم!

غالياس (مستاء): مولاتي! بل هو ذكاؤك الذي لا يقنع بشيء ..

الملك (متفكرًا): عجبًا يا غالياس! إذن في تلك البلاد أيضًا يعتقدون في عودة من يختفي بعد هذا القدر الهائل من السنين؟!

غالياس: نعم يا مولاي. ولعل لكل جنس من أجناس البشر قصة كهذه ..

الملك: إذن لا ريب عند الناس في أن من ذهب سوف يعود؟!

غالياس: نعم يا مولاي. ومن مات سوف يُبعث. تلك قصة البشرية الخالدة، وإذا كانت القصة ضمير الشعب كما يقولون، وإذا كانت البشرية قاطبة على اختلاف أجناسها وأجيالها قد اتحدت وتلاقت في قصة واحدة. أفيمكن يا مولاي لضمير البشرية قاطبة أن يُخطئ؟!

الملك (يفيق من تأمله): إذن ماذا تنتظر يا غالياس؟ لمَ لا تذهب إلى الغار فتأتي بهؤلاء القديسين ضيوفًا كرامًا على قصرنا!

غالياس (في حماسة): أصبت يا مولاي. أشهد أن ليس في ملوك الروم المسيحيين مَنْ هو أشد تقوى ومسيحية منك!

الملك (يستطرد في حماسته): لماذا لم تُبلغ الرهبان ورجال الدين كلهم كي يقوموا بالشعائر والطقوس والمراسيم بما لم يسبق له مثيل. إنها لمناسبة تاريخية لا يمكن أن يرى نظيرها دهرٌ من الدهور.

غالياس: أصبت يا مولاي، أصبت أيها الملك المؤمن. نعم فلنذهب يا مولاي ..
فلنذهب ..

(تُسمع ضجة خارج البهو.)

بريسكا: ما هذا الضجيج؟

الملك: انظر يا غالياس ما الخبر!

(غالياس يخرج سريعًا مُلبّيًا.)

بريسكا (للملك): أبتِ، أولم تزمع حقيقة إنزال هاته المخلوقات القصر؟

الملك: أي مخلوقات يا بريسكا؟

بريسكا (في خوف): أصحاب القصة. هؤلاء الأشباح الذين ملثوا مَنْ رأوهم رعبًا.

الملك: أأنتِ خائفة؟

بريسكا (في خوف): نعم.

الملك (ملاطفًا): هدّئي من روعكِ يا بريسكا. إنهم مثلنا في كل شيء. سترين. لا شكّ أن الوهم هو الذي أخاف الناس منهم.

بريسكا (خائفة): إني لن أستطيع النوم يا أبتِ كلما ذكرت أن هذا القصر يحتوي أنا وأشخاصًا خرافيين جرت بهم الأساطير منذ القدم.

الملك: كلا يا ابنتي. هم ليسوا أشخاصًا خرافيين. إنما هم قديسون. وإن وجود هؤلاء القديسين بيننا لشرف عظيم وبركة كبرى.

غالياس (يدخل مهرولًا صائحًا معلنًا): هُم يا مولاي! هُم .. هُم ..!

الملك (مُفاجأً يرتبك): مَنْ؟

غالياس: أهل الكهف ..

بريسكا (في صيحة خوف خائفة): آه ..

الملك (في رعدة): كيف .. كيف يا غالياس! كيف جاءوا؟

غالياس: جاء بهم إليك رهط من الناس يا مولاي .. ولعلمهم اجتازوا الآن باب القصر ..

بريسكا (في خوف): غالياس! تعال إلى جانبي! لا تتركني ..

غالياس (في حماسة): فلنستقبلهم يا مولاي. فلنستقبلهم أحسن استقبال.

الملك (بلا حراك): نعم فلنستقبلهم ..

بريسكا: أبت! لا تستقبلهم! إنك خائف! صوتك يتهدج فرقاً.

الملك: أنا؟!!

بريسكا: نعم! أقسم إنك خائف.

غالياس: مولاتي. إن الملك مؤمن، والمؤمن لا يخاف القديسين.

الملك: صدقت يا غالياس، صدقت.

(الضجة تدنو منهم.)

الملك (في اضطراب خفيف): اسمع! ها هم أولاء ..

غالياس: فلأهرعن إذن إليهم ..

بريسكا (تستوقفه): بل ابق هنا كما قلت لك.

(يُسمع صوت مشلينيا قادمًا.)

مشلينيا (صائحًا في الخارج): لم يتغيّر شيء يا يملixa! ها هو ذا بهو الأعمدة كما

تركناه أمس!

مرنوش: نعم بهو الأعمدة لم يتغيّر ..

يملixa (في صوت كالعويل): كل شيء تغيّر، كل شيء تغيّر ..!

(ثم يظهرون بشعورهم المدلاة، وإحاحهم الطويلة وثيابهم القديمة، يحيط بهم رجال

القصر وجنود الملك.)

بريسكا (لا تكاد تراهم حتى تصيح صيحة مكتومة، وتتمسك بأهداب ثوب غالياس):

رباه! ..

مشلينيا (لا يكاد يرى الأميرة حتى يصيح صيحة خافتة غير متمالك): بريسكا!

بريسكا (في رهب تحتمي بغاليس): آه. أَسَمِعْتَ؟ قد لفظ اسمي.

غاليس (همسًا): أرأيت؟ إنه قديس.

(الصيد يتقدّم إلى الملك المأخوذ.)

الصياد: مولاي! لقد أتينا بهم من الكهف ليفصل الملك بنفسه في حقيقة أمرهم.

مرنوش (غامزًا مشلينيا وهامسًا في أذنه): هذا ولا ريب خليفة دقيانوس.

مشلينيا (لا يحس وجودًا غير وجود الأميرة): بريسكا!

بريسكا (في خوف): إنه ينظر إليّ نظرات غريبة .. غاليس! لا أستطيع البقاء ها

هنا.

(تجذب مؤدبها وتخرج معه من باب قريب دون أن يشعر بها أحد إلا مشلينيا وهو

دهش كأنه في حلم.)

الملك (يتجاد ويتقدّم إليهم قائلاً في صوت متغيّر بعض الشيء): لقد نزلتم على

الرحب أيها القديسون. إننا قد انتظرناكم طويلًا كما انتظركم من قبل أجدادنا وأجداد

أجدادنا، وإنه لحقًا لشرف عظيم أن ..

يمليخا (الذي ما انفك يتأمّل ما حواليه بعينين زائغتين مرتاعتين يهمس لمرنوش):

انظر إلى ملابس هذا الملك وهؤلاء الجند، في أي بلد نحن؟!

الملك (يستطرد): نعم إنه لشرف عظيم أن تخصّصوني بهذا الفخر وتظهروا في

عصري دون عصور أجدادي المسيحيين.

يمليخا (هامسًا في دهشة لمرنوش): هذا الملك مسيحي!

مرنوش (وهو يُسكته): ألم تفهم غير هذه الكلمة؟

الملك (للصياد): وأنت أيها الصياد الذي دلنا على مكانهم الكريم .. سأكافئك. نعم

أيها القديسون! إننا كنا ننتظر هذه اللحظة المجيدة؛ لحظة ظهوركم منذ أمد طويل كما

هو مُدَوّن في التواريخ.

مرنوش (هامسًا وكأنما يُخاطب نفسه): هذا الملك مجنون!

الملك: إن قصري — إن شئتم — منزلکم ومأواکم وكل حوائجکم مُجابهة، وكل أوامركم مُطاعة، وليس لنا من مطمح غير خدمتكم ورضاکم.

يمليخا (همسًا لمرنوش): ألم أقل لكم إن الله حق؟! إن الشهر الذي مكثناه في الغار قد حدث فيه العجب العجائب!

(مرنوش لا يسمع له، ومشلينيا مشغول بما هو فيه من أمر الأميرة.)

مرنوش (يلتفت إلى الملك مُجيبًا): مولاي! كم أحمد الله على هذه المعجزة الحقة. إذ أهلك دقيانوس الظالم في طرفة عين، وأخلفك على العرش في الحال. وكنت أود أن أطنب في شكر الله على توليتكم بين عشية وضحاها ملكًا على أفئدتنا أجمعين، لو لم تكن لي حاجة مُلحة لا أستطيع عنها صبرًا لحظة واحدة .. (الملك يبهت قليلًا) أن يأذن لي الملك في الانصراف على الفور. إن امرأتي وولدي ينتظران أوبتي في قلق منذ أسبوع وربما أكثر من أسبوع ..

يمليخا (هامسًا لمرنوش): إني خائف من هذا القصر! (ثم يلتفت كذلك إلى الملك في صوت مضطرب) وأنا كذلك يا مولاي لي غنم ترعى الكلاً في مكان لا يعلمه سواي.

مرنوش (في إلحاح): أتأذن يا مولاي؟

الملك (مأخوذ مرتبك يبحث عن غالياس حوله): يا غالياس! يا غالياس!

مرنوش: كلا! لا لزوم يا مولاي. إني أعرف الطريق إلى بيتي.

(ينحني ويخرج حالًا .. وينتهز يملیخا الفرصة ويخرج في إثر مرنوش. أمّا مشلينيا فيبقى ويخرج من تأملّه ويتقدّم إلى الملك.)

مشلينيا: مولاي! إني لست خليقًا بالمثل بين يديك والتحدُّث إليك الآن، وأنا على ما ترى من سوء الحال. أياذن لي مولاي قبل كل شيء في الذهاب إلى حجرتي أُغَيِّرَ ملابسِي هذه وأحلق شعري الأشعث، ولحيتي الطويلة؟

الملك (في دهش): يا غالِياس! ..

مشلينيا: كلا. لا لزوم يا مولاي. أنا كذلك أعرف حجرتي في هذا القصر، فليعذرني مولاي! إني ما انتبهت إلى رثاءة هيئتي إلا الساعة. هذا ولا ريب قد نفَّرَ الأميرة الآن فلم تردَّ عليَّ تحيتي .. (يخرج من البهو تاركًا الملك ومَن معه جامدين في دهشة عظيمة).

الملك (يتحرَّك قليلًا نحو باب قريب منه): غالِياس! ..

غالِياس (من الخارج): مولاي! (ثم يظهر مسرعًا) ها أنا ذا يا مولاي! إن مولاتي الأميرة أبت عليَّ مفارقتها في هذه الآونة .. (ينظر إلى الملك الساهم) ما بك يا مولاي؟ (يلتفت حوله باحثًا) أين القديسون؟

(الملك ينتبه وقبل أن يُكلِّم غالِياس يلتفت إلى الحاضرين الساهمين كذلك فيأمرهم بالانصراف مُشيرًا بيده).

غالِياس (بعد أن ذهب الجميع ولم يبقَ غيره والملك يسأل في قلق): أين القديسون؟!

الملك: القديسون؟!

غالِياس: نعم، أين هم؟

الملك: أتصغي إليَّ يا غالِياس؟

غالِياس: بالطبع يا مولاي.

الملك (همسًا): هؤلاء القديسون مجانيين.

غالِياس (يبهت): مجانيين؟! اللهم غفرانك! وأين ذهبوا يا مولاي؟

الملك: ذهبوا .. أحدهم إلى بيته ..

غالياس: بيته؟!

الملك: هكذا قال! والثاني إلى غنمه التي ترعى الكلاً ..

غالياس: والثالث؟

الملك: الثالث راح يحلق ..

(لا يكاد المؤدّب يفتح فاه عجباً حتى تُسمع صيحات هلع نسوية خارج البهو.)

غالياس: ما هذا؟

الملك: هذا هو ثالثهم .. انطلق في القصر على ما أرى يرعب من صادفه من الحاشية. أسرع إليه يا غالياس وقُدّه إلى منزل الضيوف وأوص به الخدم والعبيد. (المؤدّب يخرج سريعاً ويتهياً الملك للانصراف، وإذا مرنوش يظهر بغتة أمامه عائداً وحده) رباه! (ويترجع) إليّ يا غالياس!

مرنوش: مولاي! أتأذن لي بكلمة. إنك قلت الساعة إن حاجاتنا عندك مُجابهة، وقد أذنت لي الآن في الذهاب إلى بيتي. غير أنني عند خروجي تذكرت أنني سأدخل على امرأتي وولدي خالي الوفاض وهما يحسبان أنني على سفر هذا الأسبوع. وتذكرت أنني منذ عام كان قد أوفدني دقيانوس إلى الأقاليم، فغبت عن بيتي أربعة أيام، فلما عدت حملت معي إلى ولدي من الهدايا ما سرّ به سروراً. حتى إنه قال «ليتك تسافر كل يوم يا أبت.» ولا ريب عندي أنه يتعزى عن غيبتني بما يحسبني سأحمله إليه من هدية، وليت معي نقوداً يا مولاي غير نقود دقيانوس هذه التي بطل استعمالها منذ ولايتك الميمونة.

الملك (يتجه إلى الباب الذي خرج منه المؤدّب): يا غالياس!

مرنوش (متأملاً المكان ثم ثياب الملك): مولاي، أصبت والله بتعجيل هذا التغيير في الملابس والمظهر عمّا كان عليه الحال في حكم الوثني دقيانوس، حتى يتميّز حكمك

المسيحي عن حكمه .. نعم، ما أحسن ملابس الناس الآن، ولكن أعجب من ذلك أن يتم لك هذا كله في بضعة أيام. ثم هذا الطريق الذي ساروا بنا فيه اليوم من الكهف إلى القصر؛ لقد تغيّر كثيرًا ولبس حلة من التنسيق لم تكن عليه الأسبوع الماضي ..

الملك (متلفنًا إلى الباب): يا غالياس، أقدم يا غالياس.

غالياس (من الخارج): لبيك يا مولاي! (يدخل مهرولاً) مولاي!

الملك (يُشير إلى مرنوش): إنك تستطيع أن تفهم ما يقول القديس!

غالياس (يلتفت إلى مرنوش وينحني في خضوع وخشوع): يا من تظله هالة النور! لقد ظهرت على الرحب بعد طول انتظار، قضته الروم في قلق ترقب عودتكم، لا تقنط ولا تمل، وقد ربط الله على قلبها بالإيمان .. (مرنوش يتفرّس في غالياس مرتابًا بعقله، ولكن غالياس يمضي قائلًا) غير أن الجميل في هذا أن يكون ظهوركم في عصرنا نحن. كأنما قد خصصتم مليكنا السعيد دون من سبقوه وآثرتم شعبه الكريم بشرف مراكم العظيم ..

مرنوش (لنفسه): أقسم بالمسيح إن هذا معتوه!

الملك (هامسًا للمؤدّب): كل هذا قلته أنا قبلك. سلّه عمّا يُريد الآن.

غالياس: يُريد؟ وهل يُريد إلا العزلة والخلو إلى الله يا مولاي؟! فلأفعلن به ما فعلت بصاحبه، أسير به إلى منزل الضيوف وأوصي به الخدم والعبيد أن يُعَنُوا بقضاء حاجاته ويأتمروا بأوامره المقدسة. (لمرنوش) هلم يا صفيّ الله!

مرنوش (لا يتحرّك): إلى أين؟

غالياس: إلى صومعتك الشريفة ..

(يُريد أن يأخذ بيده.)

مرنوش (يدفعه عنه ويلتفت إلى الملك): مولاي .. أوتترك عليّ هذا المجنون؟! (الملك وغالياس يتبادلان النظرات ويدنو أحدهما من الآخر) مولاي! إني أنتظر أمرك لأذهب إلى بيتي.

الملك (هامسًا): أسمعت يا غالياس .. أسمعت ..؟

مرنوش (في تردّد): وإني أنتظر .. برّك بعبدك الأمين وبيته.

الملك (هامسًا): ما تقول في هذا يا غالياس؟

غالياس (يتقدّم متشجعًا إلى مرنوش): أيها القديس! إنا نعرف أين بيتك .. لكن نسألك ضارعين ألا تفارقنا إليه الساعة!

مرنوش (دهشًا): تعرف أين بيتي؟!

غالياس (يلتفت إلى الملك في شيء من الزهو كأنما استطاع أخيرًا أن يتصل بالقديس): نعم! وهل يجهل مثلي مكانه؟

مرنوش (متعجبًا): عجبًا! وكيف استطعت أنت أن تعرف مكانه، ولم أبح قط بسر بيتي لغير الأخصاء؟!

غالياس: أولست من الأخصاء يا صفّي الله وأنا الذي ابيضّ شعره في ذكركم؟!

مرنوش: أنت أيها الرجل؟ إني لم أرك إلا اليوم؟!

غالياس: نعم. هذا شرف عظيم ما كنت أحلم به يومًا، وأنا أذكركم وأرقب عودتكم وأطلب القريبى من سرّ بيتكم.

مرنوش: سر بيتي؟ أخبرني كيف عرفت هذا السر .. أريد أن أعرف من أخبرك بسر بيتي؟

غالياس (في صوت عميق حار): الإيمان.

مرنوش: اسمع أيها الشيخ! سواء أكان الإيمان كما تقول أم غيره، أريد الآن أن أعرف منك أين بيتي؟ في أي موضع؟ إن كنت صادقاً، في أيّة ناحية؟ في أيّة جهة؟
غالياس (في صوت عميق): في السماء.

مرنوش (ناظرًا إلى الملك وكأنما يُخاطب نفسه): ألم أقسم بأن هذا الشيخ مُصاب في عقله!

الملك (همسًا للمؤدّب): ابقَ أنتَ هنا يا غالياس.
(يتحرّك الملك.)

غالياس (همسًا): أتذهب يا مولاي وتتركني؟

(يهم الملك بالذهاب وإذا بصوت مختنق يدنو، ويبدو يملixa فجأة فيرتد الملك إلى جوار غالياس.)

يملixa (داخلًا في حال مضطربة): مرنوش! مشلينيا! أين أنتما؟ (يقع على ركبتيه بجوار مرنوش).

مرنوش (دهشًا): ماذا دهاك؟

يملixa (وهو يُشير إلى الملك وغالياس): ويلاه! أَكُنْتُ تُخاطب هذه المخلوقات؟!
(الملك وغالياس يتبادلان النظر ويرتدان حتى يبلغا أقرب باب.)

مرنوش: أجننت يا يملixa؟! (يشير له إلى الملك وغالياس) هذا الملك وهذا الشيخ المعتوه.

(عندئذٍ يخرج الملك والمؤدّب في رفق من الباب ويتركان القديسين!)

يملixa: أين مشلينيا؟ أين مشلينيا؟

مرنوش: ما بك يا يملixa؟

يمليخا: ادُع مشلينيا على عجل! ولنذهب .. ولنذهب ..

مرنوش: إلى أين نذهب؟!

يمليخا: إلى الكهف. ثلاثتنا وقِطْمير معنا كما كنا.

مرنوش: لماذا؟! ماذا فعلت؟ ماذا حدث؟

يمليخا: إلى الكهف. ثلاثتنا وقِطْمير معنا كما كنا.

مرنوش: لِمَ يا يملِخا؟ أجب.

يمليخا: هذا العالم ليس عالمنا .. هذا ليس عالمنا.

مرنوش: ماذا تعني؟

يمليخا: أتدري كم لبثنا في الكهف؟

مرنوش: أسبوعًا. (يمليخا يضحك ضحكات عصبية هائلة) شهرًا على حسابك

الخرافي؟

يمليخا (على نحو مخيف): مرنوش، إنا موتى! إنا أشباح ..!

مرنوش: ما هذا الكلام يا يملِخا؟

يمليخا: ثلاثمائة عام! تخيّل هذا؟ ثلاثمائة عام لبثناها في الكهف!

مرنوش: مسكين أيها الفتى!

يمليخا: هذا الفتى عمره نيف وثلاثمائة عام! لقد مات دقيانوس منذ ثلاثمائة عام!

وعالمنا باد منذ ثلاثة قرون!

مرنوش: عالمنا باد؟ وأين نحن إذن؟

يمليخا: هذا الذي نرى دنيا أخرى ليست لنا بها صلة.

مرنوش: أشربت شيئاً يا يملixa؟

يملixa: لست بشارب ولا بمجنون. إني أقول لك الحقيقة. اخرج وطف بهذه المدينة وأنت تفهم.

مرنوش: أفهم ماذا؟

يملixa: تفهم أننا لا ينبغي لنا أن نمكث بين هؤلاء الناس لحظة واحدة.

مرنوش: ما الذي يُخيفك من هؤلاء الناس يا يملixa؟ أليسوا بشرًا؟ أليسوا من الروم؟

يملixa: كلا، إنهم ناس لا يمكن أن نفهم من هم ولا يمكن أن يفهموا من نحن ..

مرنوش: وما يضيرك؟ تجنبهم وامكث بين أهلك .. (مُتذكّرًا) ولكنك ذكرت لنا أن ليس لك أهل يا يملixa.

يملixa: وإن كان لي أهل. فهل تحسبني واجدهم بعد ثلاثمائة سنة؟!

مرنوش (في رعدة): ماذا تقول أيها الشقي؟!

يملixa (في صوت كالعويل): أجل. إنا أشقياء .. أشقياء .. نحن ثلاثتنا وقِطْمير معنا. لا أمل لنا الآن في الحياة إلا في الكهف. فلنعد إلى الكهف. هلمّ يا مرنوش! ليس لبعضنا الآن سميع ولا مجيب إلا البعض. هلموا بنا. رحمة بي! إني أموت إن مكثت هنا.

مرنوش: أنت جننت أيها المسكين!

يملixa: لست بمجنون .. إلى الكهف .. الكهف كل ما نملك من مقر في هذا الوجود! الكهف هو الحلقة التي تصلنا بعالمنا المفقود!

مرنوش (مُفكّرًا في اضطراب): أيستطيع العقل البشري تصوّر ما تقول؟! إنك ولا ريب صادفت من لعب بك، أو شُبّه لك.

يمليخا: لم يُشَبَّه لي، لقد سمعت الناس بأذني تقول ذلك. وهذا كل ما فهمت منهم .. من هذه المخلوقات. وأنت يا مرنوش! أفهمت من هذه المخلوقات شيئاً؟ أجب! ثم هذه الملابس العجيبة، وهذه التغيرات، والمدينة المقلوبة رأساً على عقب. اخرج وانظر! مدينة طرسوس لن تعرفها ولن تتبينها.

مرنوش (يتفكر لحظة): صدقت قليلاً في هذا .. لكن ...

يمليخا: لكن ماذا؟ أليست لنا عقول؟ إن هذا التغير كله والتبديل في كل شيء حولنا لا يُمكن أن يحدث في شهر ولا في عام.

مرنوش: حقيقة لست أفهم كثيراً ..

يمليخا: رأيته؟ إنك لم تفهم شيئاً ممّا حولك. لأن بيننا وبينهم ثلاثمائة عام!

مرنوش: ثلاثمائة عام!

يمليخا: نعم ..

مرنوش: ما تقول يا يمليخا لا يمكن أن يتخيَّله عقل بشر. وإني لأتسامح إذ أعدُّك بعدُ عاقلاً، وأنت تقول جاداً هذا الكلام. أ تستطيع حقاً أن تعتقد أننا نمنا في الكهف أكثر من ثلاث ليالٍ؟

يمليخا: إننا نمنا أكثر من ثلاثمائة سنة.

مرنوش: صه! كفى ..

يمليخا: لقد دهشت مثلك يا مرنوش. لكنه الواقع. وعمّاً قليل يثبت لك أنا لبثنا في الكهف هذا القدر من الأعوام.

مرنوش: أيتها السماوات، أعطيني العقل الذي أستطيع به تصوّر ما يتقوه به هذا الممرور! إنك جننت يا يمليخا. هذا كل ما في الأمر.

يمليخا: إنني أروي الحقيقة.

مرنوش (يتفكر في جهد): إنك ستجنني معك. كلا ليس في طاقة رأسي تصوّر هذا. فليبلغ ما بيننا وبينهم ما بلغ. ماذا تريد الآن؟

يمليخا: الكهف!

مرنوش: أتريد أن ندفن أنفسنا أحياء في الكهف؟

يمليخا: نعم، فلنذهب إلى عالمنا ..

مرنوش: اذهب أنت.

يمليخا: وأنت يا مرنوش؟

مرنوش: أنا لي أهل وبيت وولد ينتظرونني. (يمليخا يضحك ضحكة رهيبة) ما يضحك هكذا؟ أبك مسّ؟

يمليخا: ثلاثمائة عام! أنسيت؟

مرنوش (في ضيق): نعم ثلاثمائة عام. فلتكن، قلت لك ثلاثمائة أو أربعمائة عام! ماذا يضيرني؟ وماذا يُغيّر هذا من حياتي؟ إننا الآن أحياء. أتتكر أيضًا أننا أحياء في هذه اللحظة؟ وأننا خرجنا من الكهف أحياء بعد تلك الليلة الهائلة؟

يمليخا: إنها ليست ليلة واحدة — قلت لك — بل أعوام!

مرنوش (يصيح): إن لي عقلًا قبل كل شيء. إن لي عقلًا! ها هو ذا في رأسي أحس وجوده. وهذا الكلام الذي تقول يُنكره هذا العقل.

يمليخا (يسمع حركة فيجفل): من القادم؟ إنهم آتون.

مرنوش (ناظرًا إليه): لماذا تخاف منهم هكذا؟

يمليخا (كالهامس): لست أحبهم.

مرنوش: الآن، لا ريب عندي أن ليلة الكهف المُخيفة قد أثّرت في عقلك يا يملخا!

(يظهر مشلينيا وقد حلق لحيته وشاربه، وارتدى ثيابًا كثياب العصر وغدا فتى جميلًا.)

يمليخا (ممسكًا بمرنوش خوفًا ومشيرًا إلى مشلينيا): هذا واحد منهم، انظر ..

مرنوش (ملتفتًا): من هذا؟

مشلينيا (باسمًا): عجبًا! ألم تُغيّرًا بعدُ ما أنتما عليه من هيئة زريّة وثيابٍ أثرية؟

مرنوش (مُحدّقًا فيه): هذا أنت يا مشلينيا؟!

مشلينيا (باسمًا): كما ترى. (يمليخا يلمس أطراف ثوب مشلينيا مستطلعًا) أيعجبك

الثوب يا يملخا؟

مرنوش (وهو يستطلع كذلك ويتأمل مشلينيا): حدثنا كيف استطعت أن تتقلب هذا

المنقلب؟!

مشلينيا (باسمًا منشرحًا): الأمر بسيط. طلبت إلى الخدم والعبيد أن يأتوني بموسى

أحلق ذقني وشعري، فلبوا الأمر .. ولكن ...

مرنوش: ولكن ..؟

مشلينيا: ولكن طفقوا يتغامزون ويتلامزون، وكأن بهم رهبة، فصرت بهم الأطفهم

وأستدرجهم وهم فرقون، حتى استطعت أخيرًا أن أعلم منهم العجب العجيب. أتدريان

كم لبثنا في الغار؟

مرنوش: أعلمت أنت أيضًا؟

مشلينيا: أو تعلمان؟

مرنوش (في تردد): ثلاثمائة، أم أكثر؟

مشلينيا: من أخبركما؟

يمليخا (صائحًا بمرنوش): أرايت؟ أصدقتني الآن؟

مرنوش (لمشلينيا): أوتستطيع أن تتخيّل هذا يا مشلينيا؟

مشلينيا: لقد اتهمتهم بالجنون.

مرنوش (ليمليخا): أسمعت أيها الراعي؟

يمليخا (في قوة): أقسم بالمسيح ...

مشلينيا: لا حاجة لنا بقسمك، إني مُصدّقك يا يملخا، كما صدّقت أخيرًا أولئك العبيد.

مرنوش: أوصدقت؟

مشلينيا: ولمَ لا أصدّق؟ كل شيء سواء ما دامت هي ...

مرنوش: أصبت. وماذا صنعتَ بعدئذٍ؟

مشلينيا: لا شيء. طلبت إليهم أن يأتوني بثياب حديثة وأسرعت فخلعت ثيابي العتيقة.

مرنوش: حسنًا فعلت. إن من السهل أن ألحظ ما أوحى إليك بهذا التزيّن والتجمل أيها الخبيث! كل هذا من أجل ...

مشلينيا (في فرح): أرايتها يا مرنوش؟ إذ كانت هنا الساعة؟

مرنوش: نعم .. (يشرد لحظة ثم يقول) أنا كذلك يا مشلينيا أحب أن أفعل فعلك.

مشلينيا (باسمًا): تريد التزيّن والتجمل!

مرنوش: بل شيئًا من النظافة وحُسن الهيئة أدخل بهما على أهلي.

مشلينيا (ملتفتًا إلى الراعي): ويمليخا كذلك؟

يمليخا (في صوت باكٍ رهيب): دعا يملیخا فی شأنه .. أیها الفتیان! إن یملیخا عمره ثلاثمائة عام!

مشلینیا: مسکین یا یملیخا، ونحن إذن؟

یملیخا: أنتما مُحِبَّان.

مشلینیا: أولیس للمحب عُمر؟

مرنوش (لمشلینیا): دع یملیخا كما قال لك. لمن تریده یلبس ویتریز؟

مشلینیا: صدقت، إنه لا أهل له.

یملیخا (ذاهبًا فی كآبة): أستودعكما الله والمسیح!

مشلینیا: إلى أين ذاهب؟

یملیخا (ذاهبًا فی كآبة): إلى الكهف.

مشلینیا: ویحك! ماذا تصنع فی الكهف؟

مرنوش: إن یملیخا یزعم أن الحیاة مستحيلة بین هؤلاء الناس.

مشلینیا (ملتفتًا إلى یملیخا): لماذا؟

مرنوش: ویزعم أننا لا یُمكن أن نتصل بهم ولا أن یتصلوا هم بنا ..

مشلینیا: ماذا دهاه؟

مرنوش: بل أكثر من ذلك .. یرهبهم وینظر إلیهم كأنهم مخلوقات عالم آخر ..

ویتصور هذه المدینة دنیا لم یسبق له بها عهد ..

مشلینیا (لیملیخا الصامت المُطرق): لماذا كل هذا یا یملیخا؟

(یملیخا لا یجیب.)

مرنوش: وهل لهذا من سبب إلا أنه مخرف أحق!

مشلينيا: لماذا يا يملixa لا تنظر إلى الحياة وإلى الأشياء كما ننظر إليها نحن؟
أترهبك كلمة ثلاثمائة سنة؟! فليكن مبلغها ما يكون. إننا في الحياة قبل كل شيء. إننا
نعيش ونحس ونشعر ..

مرنوش: هذا عين ما قلته له. إننا نحس ونشعر ونعقل. وليس لدينا العقل الذي
يُصدّق أن ليلة الكهف تمخّضت وولدت ثلاثمائة عام. وإذا كان هو يملك هذا العقل،
فعقله ولا ريب من طراز آخر أدق من طراز عقولنا!

مشلينيا: أجبني يا يملixa! ما الذي يجعلك تختلف عنا في هذا؟ ومع ذلك، هب أننا
نمنا ما شئت من أعوام؟ فماذا يُغيّر هذا من حياتنا الآن؟ ألسنا في الحياة .. نحمل قلوبًا
وآمالًا؟

مرنوش: فلنتفكّر معًا قليلًا يا مشلينيا! أيمن لأى عقل أن يتصوّر هذا؟

مشلينيا: مستحيل!

مرنوش: وإن ظهر أن هذا حقيقي، أليس معناه الجنون لنا جميعًا؟ اعترف!

مشلينيا: أعترف أن لا شيء يستطيع أن يُغيّر من حياتي الحاضرة أو المستقبلية.

مرنوش: ولا أنا كذلك.

مشلينيا: وأنت يا يملixa! ماذا يُغيّر أمر كهذا من حياتك؟ ولماذا يختلف الآن
إحساسك بالحياة عن إحساسنا؟ (يمليxa لا يجيب) يملixa! ألا تسمعنني؟ ألا تجيب عن
سؤالي؟

يمليxa: بالله لا تسألني الآن شيئًا.

مشلينيا: لماذا؟

مرنوش: تكلم يا يملixa!

يمليخا (في حدة): قلت لكما لا تسألاني الآن شيئاً (بعد لحظة بينما ينظران إليه في وجوم) لقد صرتما أنتما أيضاً غريبين عني منذ قليل. أنتما البقية الباقية بعد أن مضى كل شيء كحلم. وانطفأت عصور وأجيال في شبه ليلة واحدة. آه لو تعلمان أيها الأعميان ما رأيتم الآن في شارع بطرسوس إن كانت هذه بعدُ مدينة طرسوس! لو رأيتماني وقد أحاطت بي ناس في ثياب غريبة وعلى وجوههم ملامح عجيبة، وهم ينظرون إليّ نظرات كاد قلبي ينخلع منها. وكأنهم يتفحصون أمرى تفحص من يحسبني من عالم الجن. وأينما سرتُ فهم في أثري بنظراتهم المستطلعة الحذرة. لا أستطيع مخاطبة أحد منهم؛ وإن فعلت فلا أحسبني أجد مُجيباً بل نظرات صامتة فزعة. يُخَيِّل إليّ أنني أموت جوعاً قبل أن يمد إليّ أحدهم يده بطعام. إنهم يظنونني ولا ريب من خلقة لا تأكل ولا تشرب .. ولا شك أنني إن أردت سكناً فلن يسكنني أحد بجواره. وإن هبطت مكاناً فالكل هاربون وتاركوه لي لينظروا إليّ عن كثب بعيونهم المستطلعة الحذرة التي لا تتغير نظراتها .. بل إنى سمعت أثناء هذا نباحاً خافتاً مخنوفاً، فانتبهت فألفيت كلبى قِطْميراً كذلك قد أحاطت به كلاب المدينة ترمقه وتشمه كأنه حيوان عجيب وهو يحاول الخلاص من خناقها ولا يجد إلى ذلك سبيلاً. وجرى المسكين أخيراً إلى جدار قريب ووقع تحته إعياءً ورعباً. والكلاب في أثره، حتى وقفتُ منه على قيد خطوة تُعيد النظر إليه، ويريد بعضها الدنو منه لمعاودة شمه فيُقَصِّيه الحذر .. هذا أنا وهذا كلبى قِطْمير في هذه الحياة الجديدة! أمّا أنتما فأعميان لا تبصران! أعماكما الحب، فلا أستطيع بعد الآن أن أريكما ما أرى! ابقيا إذن ما شئتما في هذا العالم لقد صرت وحيداً فيه. وليس يربطني إليه سبب. ولئن كنتما لم تحسا بعدُ الهرم فإنى بدأت أحس وقر ثلاثمائة عام ترزح تحتها نفسى .. الوداع يا إخوان الماضى! اذكرا عهدنا الجميل .. عهد دقيانوس! والآن .. أستودعكما الله هانئين بشباب قلبيكما في حياتكما الجديدة ..

(ويذهب في بطاء وكأبة على حين تتبعه أنظار مشلينيا ومرنوش في صمت حتى يختفى ...)

(ستار)

الفصل الثالث

(منظر الفصل الثاني عينه: بهو الأعمدة. مشلينيا ينتظر نافذ الصبر بين العمد.
الوقت ليل والمكان مضيء. يظهر غالياس في حذر)

مشلينيا (يهرع نحو غالياس في اهتمام): ما وراءك؟ (غالياس يطرق في خشوع)
أين الأميرة؟

غالياس (في تردد ورعدة): أيها القديس!

مشلينيا: أولم تُخبرها بما قلت لك؟

غالياس: نعم .. نعم ..

مشلينيا: وبماذا أجابت؟

غالياس: لا شيء .. أيها القديس!

مشلينيا: لا شيء؟! ألم تقل لها إنني أطلب رؤيتها منذ البارحة ولا أجد إليها سبيلاً،
وإنه لا بُدَّ لي من رؤيتها الليلة مهما يكن من أمر؟!

غالياس: أيها القديس!

مشلينيا (في سأم وضيق): دعني من «أيها القديس». أخبرني أنتَ ماذا قالت.
أخبرني بالله .. تكلم ..

غالياس (مطرقاً في خشية): أيها القديس ..

مشلينيا (صَيِّق الذَّرْع): قلت لك دعني من هذا القديس، لا تُتادني به بعد الآن،
أتوسَّل إليك. إني لست قديسًا .. أفاهم؟

غالياس (مطرَقًا في خوف): نعم .. أيها القديس.

مشلينيا (يتقرَّس فيه): عجبًا! إن هذا الرجل أحمق ولا شك. ماذا تصنع أنت في
القصر؟ (غالياس لا يحير جوابًا) أجب. ماذا تصنع هنا؟

غالياس: مُؤدِّب الأميرة ..

مشلينيا: مُؤدِّب؟ ومُؤدِّب الأميرة؟! منذ متى؟ إني لم أرك في القصر إلا أمس!

غالياس: أيها القديس .. إني .. إني ...

مشلينيا: وبعد؟ أفلا نفع يُرجى منك أيها الأبله؟ أفلا تستطيع أن تخبرني بشيء عن
الأميرة؟ (كأنما يُخاطب نفسه) أتراها تقصد إساءتي والإغضاء عني لأمر في نفسها؟!
أم ماذا يا ربي؟ وأنت أيها الشيخ، ألا تعاونني قليلًا؟ (غالياس مطرق، وكأنه لا يفهم)
اذهب! اذهب أيها الرجل! لا أفلحت ..!

غالياس (في خشوع وهو يُريد الخروج): أيها القديس ..

مشلينيا: أكاد أجن جنونًا. إني بقربها ولا أراها. وهذه الوحدة حولي تكاد تقتلني
قتلًا. لو أن هنا مرنوش على الأقل (كَمَن تذكَّر) قف أيها المُؤدِّب! كلمة! (غالياس يقف
خاشعًا) ألم يأت من مرنوش خبر منذ ذهب إلى بيته أمس؟

غالياس: لست أدري .. أيها القديس ..

مشلينيا: أولم يعد بعد حتى العبدُ الذي رافقه وحمل له الهدايا؟

غالياس: لست أدري .. أيها القديس ..

مشلينيا: أنت لا تدري شيئًا أيها المُؤدِّب! (كأنما يُخاطب نفسه) ها هو ذا مرنوش قد
أنساه ولده وامراته كل شيء في الوجود. وها أنا ذا لم أزل كما جئت بالأمس في

تربص وانتظار على غير جدوى! أستطيع أن أبيت تحت سقف هذا القصر ليلة أخرى ولم أكلّمها بعد؟ أيها الرجل .. أين هي في هذه اللحظة؟!

غالياس: مَنْ؟ أيها القديس!

مشلينيا (في حدة): الأميرة؟

غالياس: عند الملك ..

مشلينيا: عجبًا! وما تراها تصنع عند الملك في مثل هذه الساعة من الليل؟!

غالياس: أيها القديس .. إن ...

مشلينيا (في قوة): تكلم ..

غالياس: إن الملك إذا أرق طلبها لتقرأ له ..

مشلينيا (شبه تائر): في مخدعه الخاص؟ هذا الرجل الغريب عنها؟! فهمتُ فهمت.

أهذا هو العهد المُقدّس ..!

غالياس (جائياً): أيها القديس! أيها القديس! مغفرة! إن الأميرة مسيحية كمن تحمل

اسمها وحافضة للعهد المُقدّس.

مشلينيا (دهشًا قليلًا): كيف علمتَ ذلك؟

غالياس: إني أعرف الأميرة أيها القديس ..

مشلينيا (في رفق): أهي قالت لك عن ...

غالياس: نعم أيها القديس نعم ..

مشلينيا (في لطف آخذًا بيده): تعال يا .. ما اسمك أيها المُؤدّب؟

غالياس: غالياس أيها القديس!

مشلينيا: تعال يا غالياس! ولنتفاهم .. إني أراك تكتم عني أمورًا .. وتهابني وتجعل بينك وبينني حاجزًا أكثر مما ينبغي. لِمَ لا يفهم أحدنا الآخر؟ ما أيسر هذا لو أنك فتحت لي صدرك قليلًا، وفتحت لك نفسي .. (غالياس يُحملق فيه) لماذا تتظر إليّ هكذا؟ أَلست مثلكم؟ انظر إلى ثيابي! ما الذي يجعلني إذن غريبًا في عينيك؟ (بعد لحظة) أنت واثق بأن بريسكا حافظة للعهد؟

غالياس: ثقني بأنك وليّ الله الحق.

مشلينيا: دعنا من هذا الآن يا .. غالياس .. أخبرني كيف سلوكها مع وصيها؟ ..

غالياس (غير فاهم): وصيها؟ مَنْ أيها القديس؟!

مشلينيا: هذا الملك.

غالياس: هذا الملك أشد الملوك تمسكًا بالمسيحية أيها القديس وأكثرهم إيمانًا بالله الواحد!

مشلينيا (في ضيق): لست أسأل عن هذا أيها الأحمق! (غالياس يُطرق خوفًا) إن هذا الملك ليس من دم دقيانوس فيما أظن؟

غالياس: دقيانوس؟ دقيانوس الوثني؟! حاشا لله أن يكون ملكنا من دم ذلك المشترك الطاغية الذي لعنه التاريخ!

مشلينيا: هذا ما أقول يا غالياس .. نعم .. إن هذا الملك ليس من أسرة دقيانوس لأنني لم أراه من قبل .. ولعله من القواد المسيحيين سرًّا؛ جاء بجيشه فقلب دقيانوس في يومين وجلس على العرش مكانه، ونصب نفسه قِيَمًا على بريسكا، كل هذا حسن. ولكن .. أن يستبيح لنفسه طلبها إلى مخدع نومه ليلاً لتقرأ له كما تقول! .. (يبدو على غالياس عدم الفهم) ولكن هي لماذا تجيبه إلى طلبه؟ أخوفًا ومداراة؟ أم مباسطة ورضاء؟ ثم هذا الإعراض عني؟! آه يا غالياس .. يا غالياس (يمسك بعنق غالياس) ويلكم مني إن كان ما أفهم صحيحًا! وويلها وويل نفسي إن كانت خائنة للعهد!

غالياس (يجثو): أيها القديس إنها حافظة للعهد كجدتها القديسة. سل العرّاف. لو أن العرّاف على قيد الحياة؟ لقد قال إنها تشبه جدتها في كل شيء.

مشلينيا: تُشبه جدتها .. جدتها مَنْ؟

غالياس: بريسكا .. القديسة بريسكا ..

مشلينيا: ما هذا الخرف أيها الشيخ الهرم.

غالياس: إني أقول الصدق أيها القديس. إن العرّاف يوم ميلادها قال ذلك.

مشلينيا: أي عرّاف؟

غالياس: نعم العرّاف أيها القديس.

مشلينيا: مسكين أنت أيها الشيخ! اذهب إلى فراشك فلا حاجة لي بك .. (غالياس يتحرّك) بل اسمع أيها الرجل .. كلمة أخرى، الأميرة ولا شك ستعود إلى مخدعها بعد أن تفرغ من مسامرة هذا الملك.

غالياس: نعم أيها القديس.

مشلينيا: وستمر طبعًا بهذا البهو؟

غالياس: نعم أيها القديس.

مشلينيا: حسن. اذهب أنت .. ليس لي بك حاجة الآن؟ (غالياس يخرج) فلأنتظرنها طول الليل! (يمشي في البهو منتظرًا ثم يسمع أنينًا يدنو) ما هذا الأنين؟

مرنوش (يئن في الخارج): مشلينيا! .. مشل .. يذ .. يا ..

مشلينيا (في خوف): مَنْ يُناديني؟

مرنوش (داخلًا): مشلي .. نيا ..!

مشلينيا: مرنوش!

(يدخل مرنوش في ثياب حديثة كثياب مشلينيا وقد حلق مثله.)

مرنوش (وهو يجر جسمه جرًّا ويئن متوجعًا): مشلينيا! ..

مشلينيا (ذاهبًا إليه ومسندًا إياه): ماذا بك؟

مرنوش: مشلينيا! ..

مشلينيا: ما بك يا مرنوش؟

مرنوش (يقع رأسه على صدر مشلينيا): ولدي ..

مشلينيا: ماذا بولدك؟

مرنوش (في أنين): مات ..

مشلينيا (في جزع): ماذا تقول؟!

مرنوش: ما .. ت ..

مشلينيا: متى؟

مرنوش: ما .. ت.

مشلينيا (بعد لحظة): لا تجزع هكذا! عد إلى نفسك قليلًا، وقص عليَّ ما حدث!

مرنوش: مات ..

مشلينيا: مرنوش! ألا تسمع لي؟ قلت لك انتبه إليَّ قليلًا وحدّثني بما رأيت، علني أستطيع بعض التخفيف عنك .. (مرنوش لا يجيب) مرنوش! (يهزه برفق) أهكذا فقدت كل قوة وكل أمل وصرت شيئًا لا يصلح لشيء؟ ثم كيف تركت امرأتك وجئت في مثل هذه الساعة، لعلها محتاجة إليك؟!

مرنوش: ماتت ..

مشلينيا: مَنْ هي أيضًا؟ (مرنوش لا يجيب) امرأتك كذلك؟ ..

مرنوش: ماتت ..

مشلينيا: متى؟ وكيف؟ حدّثني بالله يا مرنوش! ..

مرنوش: مشلي .. نيا ..

مشلينيا: نعم .. تكلم ..

مرنوش: مشلينيا! مات أهلي يا مشلينيا ..

(مشلينيا يطرق.)

مرنوش: مات أهلي يا مشلينيا ..

مشلينيا: لا تجزع! املك نفسك يا مرنوش. أَقْتِلا في المذبحة؟!

مرنوش: أي مذبحة؟

مشلينيا: كيف ماتا إذن؟

مرنوش: لستُ أعلم ..

مشلينيا: ألم تسأل أحداً؟

مرنوش: لا أحد يعلم ..

مشلينيا: عجباً! ومنزلك، ألم تجد أثراً في منزلك يدلك على شيء؟

مرنوش: منزلي! آه .. أين هو منزلي؟!

مشلينيا: ألم تجد منزلك؟

مرنوش: وجدتُ مكانه سوقاً للرماح والدروع!

مشلينيا: عجباً! ومن أخبرك إذن بموت أهلك؟

مرنوش: شحّاذ هَرَم بالسوق ..

مشلينيا: ماذا قال لك هذا الشحاذ الهرم؟

مرنوش: قال إنه يذكر عن آبائه هذا الاسم ..

مشلينيا: أي اسم؟ أكنت ذكرت له اسم أحد؟

مرنوش: اسم ولدي ..

مشلينيا: فبماذا أجاب؟ (مرنوش لا يحير جوابًا) تكلم يا مرنوش بالله! ماذا أجاب؟

مرنوش: مات ..

مشلينيا: ولدك؟ أجاب بأن ولدك قد مات؟

مرنوش: وأخذ بيدي إلى المقابر وأراني قبرًا متهدمًا ..

مشلينيا: قبره؟

مرنوش: وقرأتُ بعيني أسطرًا متآكلة ..

مشلينيا: ماذا قرأت؟

مرنوش: اسم ولدي .. ثم ...

مشلينيا: ثم ماذا؟

مرنوش: ثم عبارة لم أفهمها ..

مشلينيا: قلها .. قلها يا مرنوش ..

مرنوش: «مات شهيدًا في سن الستين بعد أن جلب النصر لجيوش الروم!»

مشلينيا: أهذا ما قرأت على حجر القبر؟! ..

مرنوش: نعم.

مشلينيا: تُريد أن تزعم أنت يا مرنوش ما زعم يملixa أمس؟! ..

مرنوش: لا شكّ عندي الآن ..

مشلينيا: أيها المسكين! لقد جُنِنْتَ مثل يملixa. هذا كل ما في الأمر.

مرنوش: أنت لا ترى الحقيقة. ابني مات في سن الستين.

مشلينيا: هب أن هذا حدث .. أتبكيه اليوم يا مرنوش؟ هب أنه مات في سن الستين كما تزعم، شريفًا بعد أن عاش حياته شريفًا، وقاتل في صفوف الأبطال وربما بلغ القيادة ومُجَّدَ اسمه كما ترى. فماذا تريد لابنك أكثر من ذلك؟ (لنفسه) يا له من كلام يتضاءل بجانبه هذيان الممرورين!

مرنوش: ولكنه مات. مات قبل أن يفرح بهديتي التي كنت أحملها إليه مع العبد!

مشلينيا: أيها المسكين! إنه لم يمِتَ البارحة، بل مات شيخًا هَرِمًا بعد أن قضى حياة طويلة كلها سعادة وفخار!

مرنوش: ولدي الصغير مات شيخًا هَرِمًا! أتسخر مني يا مشلينيا في هذه الساعة؟

مشلينيا: إني لا أسخر قط .. أنت الذي جئت تروي هذا الجنون. ماذا أصنع لك؟ وما دمتَ تُصدِّق الآن يملixa فلا ريب في أن ولدك شَبَّ وكبر وسار في حياته العادية آمنًا مطمئنًا، ولعله تزوّج وأتى بذرية صالحة من ذكور وإناث .. كل ذلك ونحن في الكهف نائمون!

مرنوش: ذرية صالحة؟ مَن هذا؟ ولدي الصغير الذي كان ينتظر أُوْبَتِي بلعبة يلهو

بها!

مشلينيا: أيها المسكين. أنت لا تستطيع أن تتصوّر ولدك إلا كما رأيته آخر مرة. ومهما تسمع عن ثلاثمائة العام فهي كلمات وأرقام لا تُغيّر شيئًا من صورة ولدك الصغير .. تلك الصورة المنطبعة في مُخيِّلَتِكَ ..

مرنوش (صائحًا): كفى هراء! كفى هراء! ولدي قد مات ولا شيء يربطني الآن بهذا العالم! هذا العالم المخيف. نعم صدق يملixa .. هذه الحياة الجديدة لا مكان لنا

فيها. وإن هذه المخلوقات لا تفهمنا ولا نفهمها. هؤلاء الناس غرباء عنا. ولا تستطيع هذه الثياب التي نُحاكيهم بها أن تجعلنا منهم. لقد عرفني الناس من وجهي ومن كلامي برغم ثيابي فتبعوني أنا والعبد. وحتى العبد الذي نصبه الملك لخدمتي ما كان يفهم أغلب ما أقول، وكان يبتعد عني كأني أجرب أو أبرص. ولقد صرنا نتخبَّط طول اليوم في المدينة نسأل ونبحث واليأس والرجاء يُقَطَّعان قلبي، والناس من حولي لا تفهم ما أريد، ولا أسمع منهم إلا صياحًا يتبعونه بإشارة إليَّ هامسين «هذا أحدهم! هذا أحدهم! تعالوا شاهدوا! هذا أحدهم!» ثم المدينة! أهى طرسوس؟ مستحيل أن تكون طرسوس! نعم يا مشلينيا. إنا بعيدون عن هذه المدينة وسُكَّانها بمقدار ثلاثمائة عام. وإن يملixa لم يُجن ولم يكذب. إني الآن فقط أدرك هذه الحقيقة .. ثلاثمائة عام مضت، وها هو ذا عالم آخر يُحيط بنا كأنه بحر زاخر لا نستطيع الحياة فيه، كأننا سمك تغيَّر ماؤه فجأة من حلو إلى ملح ..

مشلينيا: لماذا لم تقل هذا الكلام أمس؟ ألسنت أنتَ الساخر من يملixa؟

مرنوش: لقد صدق هذا الراعي.

مشلينيا: منذ متى؟

مرنوش: مشلينيا! لقد مات قلبي يا مشلينيا ولا فائدة مِنِّي بعد اليوم. تعال معي يا مشلينيا!

مشلينيا: إلى أين؟

مرنوش (وهو يجذب يده): إلى عالمنا نحن ..

مشلينيا (يسحب يده منه): أمجنون أنت؟

مرنوش: أَدعني أذهب وحدي؟ (مشلينيا لا يجيب) مشلينيا! أتركني أذهب وحدي؟

مشلينيا: لا تذهب. ابق هنا.

مرنوش: لا أستطيع ..

مشلينيا: لماذا؟ ما يمنعك؟

مرنوش: لا أستطيع.

مشلينيا: بل تستطيع. لكنه اليأس والحزن على ولد مات منذ قرون في سن الستين بعد حياة تامة ناضجة أيها الأحمق! تريد أن تلحق به وأنت لم تعرف الستين بعد! وأنت لم تزل فتى أمامك النضج والحياة!

مرنوش (ضارباً رأسه بيده): أنا فتى وابني شيخ! تقول هذا الكلام في بساطة كأن ليس لك عقل يعي ويضبط ما تقول؟! آه .. إنك ستودي بي حتماً إلى الجنون ..

مشلينيا: ماذا تريد؟ إمّا أن كل هذا حقيقة وإمّا أن كل هذا خلط، وأن ليلة الكهف المخيفة قد أثّرت في عقولنا! وأغلب ظني أن هذا ليس حقيقة، فها هي ذي بريسكا موجودة كما فارقتها. ماذا تقول في بريسكا يا مرنوش وقد رأيتها مثلي البارحة. أعاشت هي كذلك ثلاثمائة عام؟!

مرنوش: بريسكا؟ نعم صدقت! لكن ابني؟ ماذا تقول في ابني؟ كلا إن هذا حقيقة لا ريب فيها. إنك لم تر المدينة. إنك لم تر شيئاً ..! بريسكا .. ولدي! رُحماك اللهم! سأفقد عقلي! سأفقد عقلي!

مشلينيا (رافعاً رأس مرنوش): لا تبك يا مرنوش! ما فائدة بكاء ولدك الآن؟

مرنوش: لست أبكي ولدي أيها الأحمق!

مشلينيا: إذن، ما بكاؤك هذا؟

مرنوش: عذاب .. عذاب آخر لا تفهمه أنت. يا ربي لماذا تركتني فريسة للعقل؟! ثلاثمائة عام! ابني في سن الستين وأنا فتى أمامي النضج والحياة ..

مشلينيا: لا تفكر في هذا يا مرنوش. عُد كما كنت أمس واسخر ممّا تسمع. هاته الأعوام الثلاثمائة أو أكثر منها، إن هي إلا كلمات، أعداد، أرقام، هب أنها مجرد ألفاظ وأرقام لا معنى لها كما كنت تفعل أمس، ماذا تستطيع هذه الأرقام أن تُغيّر من

إحساسك بالحياة؟ هب كل ذلك صحيحًا، إنما أنت الآن في الواقع أمام حياة، وأنت لم تنزل فتًى. هب أنها حياة جديدة قد مُنحتُها، أتأبأها؟!

مرنوش: حياة جديدة! ما نفعها؟ إن مجرد الحياة لا قيمة لها. إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماضٍ وعن كل صلة وعن كل سبب فهي أقل من العدم، بل ليس هناك قط عدم، ما العدم إلا حياة مطلقة.

مشلينيا: لستُ من رأيك يا مرنوش. إن أية حياة منحة. وأثمن منحة تُعطى مخلوقًا هي الحياة. ومع ذلك، هذا كان رأيك في الحياة أمس. فلماذا لا تعود إلى ما كنتَ عليه أمس.

مرنوش: هيهات! هيهات! ..

مشلينيا: لماذا؟

مرنوش: أمس كنت مثلك.

مشلينيا: مرنوش!

مرنوش: لأنني كنت أعيش في حياة لها صلة ولها سبب، هو القلب، والقلب لا يخضع لناموس الزمن. فما كانت عندي مئات الأعوام إلا كلماتٍ وأرقامًا!

مشلينيا: واليوم إذن؟

مرنوش: مات.

مشلينيا: مَنْ؟ ماذا؟

مرنوش (مستمرًا): ولم يبقَ لي إلا العقل. فها أنا ذا للعقل وحده. وها هو ذا يُعيدني إلى عالمه .. عالم الزمان والمكان ..

مشلينيا: لستُ أفهم ..

مرنوش: نعم. مع الأسف. لستُ تفهم هذا الآن ..

مشلينيا: إني أفهم أنك رجل متزن ولا تتدفع إلى الهلاك وراء عاطفتك.

مرنوش (في صوت جاف وهو يتحرّك): الوداع! ..

مشلينيا: مرنوش! أتراني لم أفهم قصدك؟ ..

مرنوش: نعم .. الوداع ..

مشلينيا: امكث معي يا مرنوش. إني في حاجة إليك لقد أنسيتني ما أنا فيه. إن لديّ أشياء كثيرة أريد أن أفصي بها إليك. أشياء عرفتھا اليوم. أشياء حدثت وأريد معونتك. امكث يا مرنوش، امكث!

مرنوش: لا أستطيع.

مشلينيا (متشبّثاً): لماذا؟ لماذا لا تستطيع يا مرنوش؟! لماذا؟

مرنوش: لقد قلت لك.

مشلينيا: ولدك؟

مرنوش (ذاهباً): الوداع .. أيها الأحق!

مشلينيا (يستوقفه): مرنوش! مرنوش! أريد أن أفهم. إني خائف. إني أرى في وجهك أشياء لا أدركها.

مرنوش (يُخلص نفسه ليذهب): ولن تدرکھا اليوم ..

مشلينيا: مرنوش! لن تذهب قبل أن تقول لي ..

مرنوش: لقد قالها يملیخا.

مشلينيا: ماذا؟

مرنوش: إنّا أشباح .. إنّا الآن ملّك الزمن.

مشلينيا (في تفكّر وشيء من الارتجاف): مرنوش! ..

مرنوش: إِنَّا مَلَكُ التَّارِيخِ .. وَلَقَدْ هَرَبْنَا مِنَ التَّارِيخِ لِنَنْزِلِ عَائِدِينَ إِلَى الزَّمَنِ ..
فَالتَّارِيخُ يَنْتَقِمُ! .. الْوِدَاعُ يَا مِثْلِينَيا ..! (يُخْرِجُ مَرْنُوشَ وَيَتْرَكُ مِثْلِينَيا ذَاهِلًا).

مِثْلِينَيا: رَبَّاهُ! أَخْشَى أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً قَدْ جُنَّ .. (يَبْقَى لَحْظَةً مُتَأَمِّلًا ذَاهِلًا بِلَا حَرَاكَ
ثُمَّ تَظْهَرُ بَرِيْسْكَا وَحْدَهَا وَبِيَدِهَا كِتَابًا).

الْأَمِيرَةُ (تَجْتَازُ الْبَهْوَ وَتَرَى مِثْلِينَيا فَتَجْفَلُ): آه .. مَنْ هُنَا؟

مِثْلِينَيا (يَسْتَدِيرُ سَرِيعًا وَيَلْتَفِتُ إِلَيْهَا): هَا أَنْتِ ذِي آخِرًا يَا بَرِيْسْكَا الْعَزِيزَةُ!

(الْأَمِيرَةُ: يَعْقِدُ الْخَوْفُ لِسَانَهَا فَتَقِفُ كَالْتَمَثَالِ).

مِثْلِينَيا: إِنِّي أَتَرَقَّبُكَ مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ .. (الْأَمِيرَةُ لَا تَجِيبُ) عَجَبًا! أَهَذَا اسْتِقْبَالُكَ
لِي؟! (الْأَمِيرَةُ لَا تَتَحَرَّكَ) مَا كُنْتُ وَلَا رَيْبَ تَتَوَقَّعِينَ رُؤْيِي السَّاعَةَ؟ (لَحْظَةً صَمَتْ ..
الْأَمِيرَةُ ذَاهِلَةٌ) بَلْ رُبَّمَا كُنْتُ لَا تَحْبِينُهَا. بَلْ لَعَلَّكَ سَاخِطَةٌ عَلَى الْمَصَادِفَةِ الَّتِي جَاءَتْ
بِكَ الْآنَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، إِنِّي أَرَى ذَلِكَ فِي وَجْهِكَ. لَا بَأْسَ. بِالرَّغْمِ مِنْ هَذَا لَا أَكْتُمُكَ
أَنْ مَرَّكَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ قَدْ صِيرَنِي سَعِيدًا .. سَعِيدًا يَا بَرِيْسْكَا إِلَى أَقْصَى غَايَةٍ ..
(الْأَمِيرَةُ فِي دَهْشٍ) لِمَاذَا تَنْتَظِرِينَ إِلَيَّ هَكَذَا؟ (بَرِيْسْكَا لَا تَتَحَرَّكَ وَيَنْظُرُ مِثْلِينَيا إِلَى
ثِيَابِهِ) أَيْدُهُشْكَ شَيْءٌ فِي هَيْئَتِي؟ مَاذَا تَرِينَ فِيَّ قَدْ تَغَيَّرَ (بَرِيْسْكَا لَا تَجِيبُ) عَجَبًا! أَلَا
تَتَكَلَّمِينَ؟ أَلَا تَنْتَظِرِينَ بِحَرْفٍ؟ أَلَيْسَ لَدَيْكَ الْآنَ مَا تَقُولِينَ لِي! أَتُرِيدِينَ أَنْ أَظُنَّ بِكَ مَا
ظَنَنْتُ السَّاعَةَ. (بَرِيْسْكَا لَا تَتَحَرَّكَ، مِثْلِينَيا يَتَقَدَّمُ خُطْوَةً نَحْوَهَا، وَيَقُولُ فِي شَيْءٍ مِنْ
الْحَدَّةِ) تَكَلِّمِي! انْطَقِي! إِنِّي لَسْتُ بَعْدَ قَادِرًا عَلَى احْتِمَالِ مَا يُحِيطُ بِكَ مِنْ صَمْتٍ
وَعَمُوضٍ .. تَكَلِّمِي! .. تَحَدَّثِي بِشَيْءٍ ..!

بَرِيْسْكَا (فِي صَوْتٍ خَافَتْ): أَيُّهَا الْقَدِيسُ.

مِثْلِينَيا: أَيُّهَا الْقَدِيسُ! أَتَنْتَهَكُمِينَ؟ (بَرِيْسْكَا لَا تَجِيبُ) عُدْتُ إِلَى الصَّمْتِ. أَهَذَا كُلُّ مَا
عِنْدَكَ؟ «أَيُّهَا الْقَدِيسُ»! لَسْتُ قَدِيسًا أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ بَرِيْسْكَا. وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ ذَلِكَ. ابْحَثِي
عَنْ شَيْءٍ آخَرَ تَقُولِينَهُ.

بَرِيْسْكَا (فِي دَهْشَةٍ): لَسْتُ قَدِيسًا؟!

مشلينيا (في فتور): كلا.

بريسكا: ألسْت القديس ذا المنظر المخيف الذي رأيته أمس هنا؟

مشلينيا: إن كنتِ ترينني مخيف المنظر فأنا هو.

بريسكا: كلا. أنتَ لستَ مخيف المنظر.

مشلينيا (متصنعا السذاجة في غيظ مكتوم): صحيح؟!

بريسكا (تتأمل منظره): إنك صرت شخصا آخر. مخلوق أمس كان يبدو شيئا أو

على الأقل ذا شعر أشعث كشعر الشيخ .. أما أنت ..

مشلينيا: أمّا أنا؟

بريسكا: فتبدو فتى .. إنك فتى.

مشلينيا (في تهكّم مُر): شيء جميل. ما أبرعك!

بريسكا: لماذا؟

مشلينيا (في تهكّم وغيظ): لأنكِ عرفتِ أنني فتى وأني إنسان .. مرحى مرحى! ما

كنتُ أحسبكِ تعرفين من أمري كل هذا المقدار.

بريسكا: لستُ أفهم ..

مشلينيا: أنا كذلك لستُ أفهم. إني أعرف بريسكا بسيطة وديعة صافية النفس،

مؤمنة القلب، طاهرة الضمير، وما عرفتُها قط قديرة على التصنّع والتخابث والختل ..

بريسكا: أأنت تعرفني إذن؟

مشلينيا: بريسكا. احترسي. إن لصبري حدّا.

بريسكا (في دهشة): مَنْ أنت؟ إنك تُخاطبني كما لو كنت تعرفني من قبل، أو كما

لو أنك لي بعل؟!

مشلينيا (في ألم): شكرًا لك.

بريسكا: ما بك؟ (مشلينيا لا يجيب) إني لم أقصد إغضابك يا هذا. لكن ...

مشلينيا (منفجرًا): وأنتِ تخاطبينني كما لو أنك امرأة خائنة مرائية تُريد أن تتجاهل ما سلف وتنقض عهودها المقدسة متوسلة بأخس الأسباب. ما كان أحراك أن تسلكي طريق الصراحة والصفاء وتواجهيني بالحقيقة بدل أن تتكريني هذا الإنكار. أيتها الأميرة، إني أعرف كل شيء ولم أتهدّم بعد، ولم تَمِد بي الأرض بعد، ولم تتطبق السماوات. وها أنا ذا واقف أمامك قويًا محتملًا لا أضعف، عاقلًا لم أُجن. كم أنتِ مخطئة أن تظني بي الضعف عن احتمال خبر خيانتك. إن القلب الذي امتلأ يومًا بك ليستطيع أن ينبض بدونك على الأقل يومًا أو يومين. إني ما كنت أحسبني بهذه القوة، إني لا أزعم أنني أستطيع أن أخلع من نفسي تلك التي كانت لي عقيدة أو أكثر من عقيدة، ولا أن أشوّه من ذاكرتي أجمل إحساس ارتفعت به نفس بشر، ولكني أستطيع أن أزعم أنني أعيش بعد كل هذا. نعم أعيش .. ألا ترين؟ انظري ها أنا ذا أعيش! ها أنا ذا أعيش! ها أنا ذا أعيش!

بريسكا (مأخوذة في غير استنكار بل في سرور خفي لا تدركه): أنتِ تخاطبني أنا بكل هذا؟ (مشلينيا لا يجيب، بريسكا كأنما تخاطب نفسها) هذا كلام لم يقله لي أحد من قبل .. إلا أنتِ اليوم! ما أجملك بطلًا من أبطال المآسي الإغريقية التي كنت أطلعها خفية عن غالياس، وأنا صغيرة.

مشلينيا (يتظاهر بالهدوء والفتور): معذرة أيتها الأميرة. إني ما قصدت بكلامي شيئًا سوى إبراء ذمتك ..

بريسكا: إبراء ذمتي؟ ممّ؟ ..

مشلينيا: ممّا ارتبطت به من عهد.

بريسكا: أي عهد؟!

مشلينيا (في هدوء): أولاً تعرفين هذا أيضًا؟! عهد الخطبة بيننا.

بريسكا (وهي تنتظر إليه في حسرة): وا أسفاه! الآن لا شكّ عندي ...

مشلينيا (في مرارة): أخيرًا ..

بريسكا (متممة عبارتها السابقة): في أنك مجنون!

مشلينيا: أشكرك أيُّها الأميرة. لأن أكون مجنونًا خير من أكون خائنًا!

بريسكا (هادئة): أنا خائنة؟! ما هي تلك الخيانة المزعومة التي ترميني بها منذ لحظة؟ (مشلينيا ينظر إليها ولا يجيب) تكلم. أرني إلى أي حد يصل الجنون .. الأمر العجيب أنك لم تعد تخيفني. نعم، لست أخاف جنونك اللذيذ هذا .. بل إنني لأحب أن أستمع إلى قصصك .. تكلم. ما هو نوع خيانتني؟ ولمن؟ لك أنت؟

مشلينيا (هادئًا). في أسف وكأنما يقول لنفسه): بريسكا! إنكِ لستِ بريسكا!

بريسكا: دعنا من هذا. هذا جنون سهل مبتذل. حدّثني عن الخيانة ..!

مشلينيا: بريسكا. إنكِ ما كنتِ على هذا الذكاء ..!

بريسكا (باسمة): متى؟

مشلينيا (في مرارة): أهكذا انتهى كل شيء ..؟

بريسكا: أي شيء؟

مشلينيا: بهذه الوسيلة الهيّنة! أي شيطان يجرؤ على هذا وأي ضمير .. (لحظة) لكن .. لا .. ينبغي أن أتريّث قبل أن أتهمكِ هذا الاتهام الشنيع. بريسكا الملاك الطاهر؟! أتراني أسرف وأبالغ؟ لعلّ مجنون كما تقولين إذ أسمح لنفسني بالارتياح إليك. بريسكا .. لعلّ هذا ما تقصدين! وافرحتاه، لو أن هذا صحيح! هذا الخاطر قد يرد إليّ الحياة، بريسكا .. تكلمي! أنا مجنون لأنني أرتاب فيكِ؟

بريسكا: قد يكون هذا ولكن ما يحملك على الارتياح فيّ؟ وما هو نوع ريبتك؟

مشلينيا (يتقدّم نحوها ماديًا يديه في فرح): أسألك الصفح!

بريسكا (تتقهقر): لا تلمسني .. لا تلمسني ..

مشلينيا (يقف في مكانه طائعا): نعم اني اثمت يا بريسكا! إنها رعونتي لم تتغير، وكذلك ...

بريسكا: ماذا؟ تكلم ..

مشلينيا: الغيرة.

بريسكا (في دهشة وعجب): الغيرة؟!

مشلينيا (خافت الصوت مطرقا): نعم.

بريسكا (باسمة في غير استتكار): هذا جميل!

مشلينيا (في عتب): لأنك أهملتني وأغفلت شأني يا بريسكا. لست أدري لماذا؟ ومنذ البارحة وأنا أنقطع لرؤيتك وأطلبك وأرسل إليك وأنتظر الليل. فيقال لي اليوم إنك عند هذا الرجل في مخدعه تسامرينه، وتلهينه في ساعة كهذه مريبة ..!

بريسكا: إنك فاتن حقاً أيها القديس!

مشلينيا: عُدت إلى التهكم!

بريسكا: كم يكون كلامك هذا أشد عجباً وغرابة لو أنك بقيت على منظر الأمس، بلحيتك وشعرك وثيابك الغربية (مشلينيا لا يجيب). ولكني لست أكتمك أني ما كنت أستطيع الاقتراب منك، والإصغاء إليك كما أفعل الآن .. (مشلينيا يكظم غيظه ولا يجيب) أغضبتك؟

مشلينيا: من علمك هذه اللهجة؟ وكيف انقلبت امرأة أخرى في هذا الزمن القليل؟!

أين الوداعة والخفر والحياء العميق وصوت الملائكة الذي لا يكاد يُسمع؟

بريسكا: كل شيء إلا الحياء العميق وصوت الملائكة أيها القديس! من أين جاءك

أنني كنتُ كذلك؟

مشلينيا: كنتِ كذلك يوم كان الحب يرفعك عن هذه الأرض.

بريسكا: الحب!

مشلينيا: الذي كان عندك أقوى من العقيدة، أقوى من الدين، لأن عقيدة الملائكة حب.

بريسكا: عقيدة الملائكة حب؟

مشلينيا: أتجهلين ذلك الآن؟

بريسكا: هذا أحسن ما سمعتُ منك أيها القديس! وأعقل ما قلتَ اليوم.

مشلينيا (في أسف): ومع ذلك فلستُ أنا قائله.

بريسكا: من إذن؟

مشلينيا: أنتِ.

بريسكا (في دهشة): أنا؟

مشلينيا: نعم أنتِ التي أريتني هذا وأفهمتيه.

بريسكا: متى؟ متى كان ذلك؟!

مشلينيا: يوم كنتِ أقل ذكاءً وأعمق قلبًا.

بريسكا: ومن قال لك إن قلبي ليس عميقًا؟!

مشلينيا: عيناك .. كنتُ أرى فيهما ما لا أرى الآن .. وكانتا وحدهما اللتين تتكلمان

على حين كان لسانك الساذج قاصرًا لا يستطيع أن يقول كل ما قلتِ الآن.

بريسكا (بعد لحظة تأمل): جميل هذا الدرس الذي تلقّيه عليّ أيها القديس! ليتك

غالياس، هذا المؤدّب الذي طالما أثقل عليّ بأكاذيبه وحقايقه!

مشلينيا (في برود): إني ما جئت لألقي دروسًا.

بريسكا: إذن لعلها رسالتك إلى هذا العالم أيها القديس! ثق بقولي، ما أجملها رسالة إلينا!

مشلينيا (منفجرًا في غيظ): إلى عالم موبوء كله ختل وخيانة. نعم، وا أسفاه! لو أن رسالات السماوات كلها تنفع في إعادة الطهر إلى قلب امرأة خائنة!

بريسكا: عدتَ إلى ذكر الخيانة؟ (مشلينيا ينظر إليها ولا يجيب) لماذا تنتظر إليّ هكذا؟! تكلم .. إني أصغي إليك على كل حال .. تحدّث ..

مشلينيا (يجثو): بريسكا. إني أتعذّب. لماذا تُعذّبينني؟ .. لماذا لا تُخبريني بالصدق بدل التهكم والمداورة؟ قولي كلمة واحدة بصوتك العميق الصادق وأنا أقتنع وأستريح .. بل أقسمي .. أقسمي لي ..

بريسكا: أقسم لك؟

مشلينيا (يرى الصليب في جيدها): نعم أقسمي على هذا الصليب .. وا فرحتاه .. هذا صليبي ما زلتِ تحمليه .. شكرًا لك يا بريسكا ..

بريسكا (في دهشة): صليبك؟!

مشلينيا: أليس في هذا دليل على حفظك لعهدي؟! نعم .. قلبي يُحدّثني دائمًا أنك بريئة. بل إني لوائق. لكنّي أطلب التأكيد .. التأكيد .. حتى لا أسمح لنفسني بعد بالشك ..

بريسكا (تُقلّب الصليب في يدها وكأنها تقول لنفسها): أتراك عُدتَ إلى الخط والجنون؟ وأنا التي كادت تُعنى بما تقول ..

مشلينيا: نعم إنه جنون أن أشك في بريسكا. إني أفقد وعيي كلما خطر لي .. إذن فلاطرد من رأسي كل فكرة من شأنها أن ... نعم فلنترك هذا الموضوع إلى الأبد .. ولنتكلم في شيء آخر .. أعدكِ يا بريسكا وعدًا صادقًا أنني لن أجن بعد الآن، فهل

تصفحين عني؟ (بريسكا تنظر إليه صامتة) لماذا تنتظرين إليّ هكذا؟ بريسكا! هل تمنحينني عفوك؟ أجيبني!

بريسكا (بغير انتباه): نعم ..

مشلينيا (يُريد أن يلثم يدها): ما أسعدني! إني الآن سعيد أيتها العزيزة! يا خطيبتي المعبودة! (بريسكا شاردة تحس شفة مشلينيا على يدها فتتزعجها من يده في الحال) لماذا لا تُريدين أن ألثم يدك!

بريسكا: انهض أيها المجنون! إني أصغيت إليك أكثر ممّا يجب ..
(تتحرك ذاهبة.)

مشلينيا (صائحا في يأس): بريسكا. إلى أين؟ أتذهبين بهذه السرعة وعلى هذا النحو؟ وقبل أن تقولي لي.

بريسكا (تستدير): أقول لك ماذا؟

مشلينيا: إني لن أستطيع النوم الليلة، إن لم تزيلني كل ما بنفسني من .. مهما تبلغ ثقتي بك فإني محتاج أن تُوضّحي لي هذا الغموض .. أريد أن أعرف .. لا تُعذّبينني! لا تقتليني! أريد أن أعرف يا بريسكا.

بريسكا: تعرف ماذا؟

مشلينيا: من هذا الرجل؟

بريسكا (في دهشة): أي رجل؟

مشلينيا: الذي كنتِ عنده الساعة!

بريسكا: لم أكن عند رجل الساعة! ولئن جاز لك أن تخطط وتهرف .. فليس لك أن تُهينني!

مشلينيا: صفحا يا بريسكا! .. إني وحشيّ التعبير وما قصدت إهانة .. لكنه القلق وحب المعرفة، إني أردت أن أسألك أين كنت الساعة قبل أن تمرى بهذا البهو؟
بريسكا: كنتُ عند أبي.

مشلينيا (دهشًا): أبوك؟! .. أريد من كنتِ تقرئين له الآن وتسامرينه ..
بريسكا: نعم هو أبي .. إذا أرقّ دعاني لأطالع له حتى ينام. مشلينيا (في حدة)
بريسكا!

بريسكا: ماذا دهأك؟! ولمْ تُحملق فيّ بعينيك؟!
مشلينيا: بريسكا. أتمزحين وتتخابثين؟ .. أم .. أم تريدين خداعي .. أم أنا في ...؟
بريسكا (في دهشة): ماذا تقول؟!

مشلينيا: أنا عميت؟ .. إن هذا ليس بدقيانوس .. إن هذا الملك ليس بدقيانوس.
بريسكا: دقيانوس؟! طبعًا لا. إن أبي ليس بدقيانوس.
مشلينيا: بريسكا! ألسِ ابنة دقيانوس؟

بريسكا: أنت مجنون؟! أأكون ابنة ملك مات منذ ثلاثمائة عام؟!
مشلينيا (رأسه بين يديه كأنما ينتظر طامة): من أنتِ إذن؟ إلهي! أكاد أُجن! سأُجن ..

بريسكا (تمد يديها إليه في قلق): ماذا بك؟!
مشلينيا: ابنة هذا الرجل؟ هذا الملك؟ ربّاه كيف يمكن هذا؟! ..
بريسكا: من كنت تحسبني إذن؟! آه .. (تصيح فجأة إذ تبرق في رأسها فكرة) آه ..
نعم .. نعم .. يا إلهي. فهمت .. فهمت ..
مشلينيا (رافعًا رأسه): ماذا؟ ماذا؟ ..

بريسكا: فهمت. اني لست بريسكا التي تقصدها! يا إلهي! كل هذا الذي قلت لم يكن لي إذن .. بل للأخرى ..

مشلينيا: لستُ أفهم ..

بريسكا: أنسيت أن عمرك ثلاثمائة عام؟! أنسيت أنك لبثت في الكهف ثلاثمائة عام؟

مشلينيا: وماذا يهم ..؟!

بريسكا (في كآبة ومرارة وكأنما تقول لنفسها): صدقت! أنا أيضًا نسيت ذلك الساعة!

مشلينيا: بريسكا. ماذا تقولين؟

بريسكا: لا. لا شيء!

مشلينيا: تكلمي بالله ..

بريسكا (لمشلينيا): إنها كانت ابنة دقيانوس! دقيانوس الوثني، ولكنها اعتنقت دين المسيح!

مشلينيا: نعم. من أجلي يا بريسكا. أليس كذلك؟

بريسكا: أوكان ذلك من أجلك! آه. إذن كان ذلك من أجلك! نعم. نعم. وغالياس يقول إنها قديسة وإن المسيح جاءها في المنام وقلدها هذا الصليب الذهبي.

مشلينيا: بل هو صليبي الذي أهديتك إيَّاه يا بريسكا عقب ذهابنا إلى الراهب .. ألا تذكرين؟!

بريسكا (مُفكِّرة كمن تُخاطب نفسها): نعم. نعم. أدركتُ كل شيء الآن ..

مشلينيا (في رجاء): أدركتِ الآن! يا بريسكا .! تذكرتِ؟

بريسكا (تلتفت إليه في قوة، وتقول في لهجة قاطعة): اسمع! أتريد أن تُصغي إليّ ملياً، وتعي ما أقول؟

مشلينيا (يلتفت إليها بكل جوارحه): نعم.

بريسكا: إن بريسكا ابنة دقيانوس. خطيبتك التي تهواها ماتت منذ ثلاثمائة عام.

مشلينيا (بغير فهم): ماتت؟

بريسكا: نعم. عذراء طاهرة كما تركتها، وقد حافظت على عهدك المقدس .. وظلت طول حياتها تقول إنها تنتظر. تنتظرك أنت بالطبع حتى تعود.

مشلينيا (كالمخبول): ماذا أسمع؟!

بريسكا: ولقد وفّيت بوعدها وانتظرتك حتى أدركها الموت في الخمسين من عمرها، وقد طلبت في النفس الأخير أن تُحمل لتموت في هذا البهو، لماذا؟ أكنتما تتلاقيان هنا؟! تكلم يا هذا!

مشلينيا (في غير وعي): نعم. نعم.

بريسكا: الآن وقد عرفت. اذهب وابكها. إنها ولا ريب تنتظر دموعك. الوداع!

مشلينيا (يتمسك بأذيالها وهي تهتم بالانصراف): بريسكا! لا تذهبي ..

بريسكا (في حدة غريبة): قلت لك إني لست ببريسكا.

مشلينيا (في توسل): لست أنت .. لِمَ هذا يا بريسكا؟ رُحماك! أتريد أن أفقد عقلي؟

بريسكا (في حدة): ألم تسمع ما قلت ..؟ لست بريسكا التي تُحبها. ماذا تُريد مني؟

مشلينيا (يحملق فيها كالمجنون): رحمتك يا ربي! من أنت إذن! إني لست أدري بعد هل لي رأس فوق كتفي؟

بريسكا (في تجههم): إني أشبهها. ولست هي. انظر جيّدًا. وليعد إليك عقلك.

مشلينيا (يحملق كمن لا يصدق): تشبهينها! تشبهين من يا بريسكا؟!

بريسكا: ولقد أسموني باسمها.

مشلينيا (كمن كاد يفهم): ربّاه!

بريسكا: ألم يُخبرك أحد بقصة العرّاف الذي جاءوا به ساعة ميلادي لينظر طالعي؟

مشلينيا (كمن يتذكّر): العرّاف!

بريسكا: لقد تتبّأ بأني حينما أكبر سأشبه القديسة بريسكا ابنة دقيانوس. ولهذا دعوني باسم بريسكا.

مشلينيا: العرّاف؟! نعم يُخيّل إليّ أني سمعت شيئًا كهذا .. أين ومتى؟!

بريسكا: أَوْضَحْتَ لعينيك الحقيقة الآن؟!

مشلينيا (ينظر إليها طويلًا): لستِ إيّاها؟!

بريسكا: كلا، لستِ إيّاها. اذهب! ماذا تنتظر بعد في هذا المكان؟ قلبك لم يعد هنا!

مشلينيا (وهو لم يزل ينظر إليها): قلبي لم يعد هنا؟!

بريسكا (تتنظر إليه طويلًا ثم تقول بصوت خافت): الوداع!

(تتصرف.)

مشلينيا (كمن أصابه خبل يمد يديه نحوها): بريسكا! عزيزتي تعالي .. أنتِ هي! ربّاه! أنتِ هي ..! لست هي؟ ومن تكونين إذن .. أنتِ؟ أنائم أنا؟ أحيّ أنا؟! أأكون في حلم مضطرب مختلط؟! إلهي. إلهي! أيها المسيح! أيها الإله! أعطني عقلًا أرى به. أعطني النور أو أعطني الموت. اليقظة. النوم. العقل. العقل .. مرنوش. أين أنت يا مرنوش؟ أين نحن .. أين نحن الآن. أحلام الكهف؟ أهي أحلام الكهف؟ أنا في حقيقة؟

أنا في الكهف؟ ما هذه الأعمدة؟ .. (يتخبط بين العُمد في البهو) إليّ يا مرنوش .. يا يملixa .. إنا لا نصلح للحياة .. إنا لا نصلح للزمن .. ليست لنا عقول .. لا نصلح للحياة! (يخرج فيصطدم بغالياس الداخل).

غالياس (يفرك عينيه وينظر في أثر مشلينيا الذي خرج): ماذا بالقدّيس؟ ما بال القدّيس هائجاً؟!

بريسكا (تعود على مهل وتبحث بعينيها وتقول بصوت خافت كأنما هو لنفسها):
ذهب؟!

غالياس: مولاتي! ألم تأوي بعد إلى مخدعك؟

بريسكا: لست أريد النوم.

غالياس: كنت أنتظرك على مقعد قرب باب الملك ولكن غلبني النعاس فلم أرك تخرجين.

بريسكا (غير ملتفتة إلى كلامه): غالياس!

غالياس: مولاتي!

بريسكا (بعد لحظة .. في تردّد): غالياس ..

غالياس (يدنو منها): مولاتي! لبيك يا مولاتي .. ماذا بك؟

بريسكا: لا .. لا شيء. اذهب إلى فراشك إذا شئت ..

غالياس: أوتبقين وحدك هنا. ونحن في ساعة متأخرة من الليل؟

بريسكا: نعم.

غالياس (ينظر إليها): ماذا بك يا مولاتي؟ إنني لم أرك قط على هذه الحال؟

بريسكا: ماذا ترى بي؟

غالياس: لستُ أدري على التحقيق .. ولكن ...

بريسكا: غالياس! أريد أن أقول لك .. أريد أن أقول لك شيئاً .. مُروّعاً.

غالياس: يا الله! تكلمي يا مولاتي!

بريسكا: لقد وجدتُ .. وفقدتُ .. في طرفة عين ..

غالياس: ماذا وجدتِ يا مولاتي؟!

بريسكا: وفقدتُ .. وينبغي لي أن أفقد .. إلى الأبد! لأن هذا جنون. هذا مُروّع!

غالياس: وجدت ماذا؟

بريسكا: حلمي ..

غالياس: حلمك؟ أي حلم يا مولاتي؟ (لحظة) نعم أذكر أنك قلت لي بالأمس عن حلم رأيته .. حلم مفزع مخيف.

بريسكا: هو ذاك أيها الأحمق! اذهب عني لا فائدة لي منك.

غالياس: مولاتي! لا تُراعي، ولا تعتقدي كثيراً بالأحلام! .. ولا سيما أحلام مَنْ في سنك. إن أحلام الشباب غالباً أضغاث.

بريسكا (في حسرة): أحلام الشباب غالباً أضغاث! (كمن تُخاطب نفسها) نعم .. صدقت في هذا.

غالياس: ألم تحلمي أنك دُفنتِ حيّة؟! أو تصدقين حلمًا كهذا؟

بريسكا (تنتبه لعبارته): ماذا؟ نعم يا للمصادفة العجيبة! لقد رأيتُ ذلك حقًا البارحة؟ أجل يا غالياس .. ولمَ لا؟ لقد بدأت تصدّق الرؤيا ..

غالياس (في قلق): ماذا تعنين يا مولاتي؟

بريسكا: لا شيء .. اذهب ..

غالياس: لست أفهم .. هذه أول مرة لا أفهم فيها كلامك يا مولاتي؟ .. إنك اليوم تتكلمين كما يتكلم هؤلاء القديسون!

بريسكا: لا تُهن القديسين يا غالياس.

غالياس: حاشا لله يا مولاتي! حاشا لله! إن الله ليشهد بما في صدري من خشوع وخضوع. غير أنني أردت أن أقول إن خيرًا للقديسين أن يظلوا في السماء من أن ينزلوا بيننا على الأرض ..

بريسكا: إنهم ما نزلوا يا غالياس إلا ليرفعونا معهم إلى السماء.

غالياس: هذا شرف عظيم يا مولاتي. ولكن لا يناله إلا الأخصاء ..

بريسكا (في حزن وكأنما تُخاطب نفسها): صدقتَ (لحظة) إذن لا ينبغي أن نطمع حتى في هذا؟

غالياس: ومع ذلك. مَنْ يدري؟ ألم يقل العرَّاف إنك ستُشبهين القديسة؟ إن الله لم يخلق هذا الشبه عبثًا ..

بريسكا (مضطربة): ويلك! ماذا تعني؟

غالياس: أعني يا مولاتي أنك قد تصيرين خليفتها.

بريسكا: خليفتها! خليفتها في ماذا؟ يا للفضاعة؟ أجننتَ يا غالياس؟ إني أفضّل العذاب والموت على شيء فظيع كهذا ..

غالياس: شيء فظيع! أستغفر الله! أستغفر الله!

بريسكا: ألا تتصوّر فظاعته! آه. ولكنك لا تفهم شيئًا أيها الرجل. اذهب.

غالياس: أستغفر لك الله! وأنا الذي رجا لك يا مولاتي رضاء الله وولايته، وتفاءل منذ قليل إذ ألحَّ القديس مشلينيا في طلبك مرة أخرى الساعة .. وكان مهتمًا غاية الاهتمام.

بريسكا (مطرقة): نعم. أعرف لمن كان هذا الاهتمام.

غالياس: أقابلته يا مولاتي؟ إني انتظرتك بباب الملك لهذا، ولأرجو منك ألا تقزعي منه ..

بريسكا: قابلته .. ولم أفزع منه مع الأسف ..

غالياس: وماذا قال لك؟

بريسكا (تُغالب تأثرها): قال لي أشياء. أشياء. وفي وجهي ..

غالياس (ينظر إليها): أتبكين يا مولاتي؟!

بريسكا: قال إن القديسة بريسكا كانت عميقة القلب، أمّا أنا فلا. وإنها كانت ذات صوت ملائكي لا يكاد يُسمع أمّا أنا فلا. وإنها كانت ذات وداعة وصفاء وحياء جميل أمّا أنا فلا ..

غالياس: كيف ذلك يا مولاتي؟ أهو يعرفها؟!

بريسكا (في غيظ): اسكت أو اذهب أيها الغبي الجاهل الأحمق! إنه يُحبها وتُحبه وخطيبها وخطيبته وبينهما عهد مُقدّس لا بينها وبين الله أيّها المؤدّب الأبله. وكانت تنتظره حتى الموت .. تنتظره هو لا المسيح وهو الذي أعطاهَا هذا الصليب الذهبي ..

غالياس: عجبًا! القديس مشلينيا هذا؟!

بريسكا: نعم هذا الفتى الجميل .. خطيب جدتي الغابرة. ولا يُحب سواها في الوجود .. في أي وجود. اذهب الآن أيّها المؤدّب وارقد. إني في حاجة إلى السكون والوحدة ..

غالياس (مستذكرًا): نعم. إنهما وُجِدَا وعاشَا في عصر واحد تحت حكم دقيانوس — كما ورد في كتاب الراهبين ..

بريسكا: قلتُ لك اذهب!

غالياس (وهو منصرف): ذهبتُ .. أيتها الأميرة! (يخرج وتبقى بريسكا ورأسها إلى عمود).

(مشلينيا يعود ..)

بريسكا (تحس به فتستدير ملتفتة إليه): لِمَ عدت؟ (مشلينيا يطرق ولا يجيب) ألم تفهم إذن ما قلتُ لك الليلة؟ إني لستُ إيّاها ..

مشلينيا (في صوت خافت): فهمت ..

بريسكا: إذن لماذا رجعت؟ (مشلينيا يطرق ولا يحير جواباً) تكلم يا هذا!

مشلينيا: لم أستطع البُعد عن هذا المكان ..

بريسكا: نعم .. هذا المكان حيث كنتما تتلاقيان. وما أشقّه عذاباً على نفسك أن تفارق موضع الذكرى! أليس هذا ..؟

مشلينيا (في حزن): ليته هذا!

بريسكا: إذن فأنت جئت تبحث عن أثر من آثارها تتعزى به.

مشلينيا: آثار مَنْ؟

بريسكا: آثار من تُحب ..

مشلينيا: إنها لم تمت.

بريسكا: ماذا تعني؟

مشلينيا: بل أنا الذي مت .. عندها ..

بريسكا: لماذا تنتظر إليّ هكذا؟ .. احذر يا هذا! إن كنتَ تريد أن تتذكرها في صورتِي! وتتأملني كطيف لها. وتجعلني تمثالاً يشبهها، فإني لا آذن لك بذلك.

مشلينيا: لبيتك كنتُ تمثالاً ولكنك كائن حي.

بريسكا: يا له من أمر مريع! ابتعد عني ..

مشلينيا: لا تخافي! إني لم أنس أن بيننا ثلاثمائة عام!

بريسكا: بل أفضع من هذا أنك تمزج شخصيتي بشخصيتها. إنك لا تراني أنا .. بل تراها هي في .. إنها لم تمت عندك بل أنا التي ماتت، اذهب عني! اذهب من هنا على الفور أيها الرجل!

مشلينيا (في يأس): بريسكا ..! بريسكا ..

بريسكا: صه! لا تُتادني كما كنت تُتاديهـا. ليس بيني وبينك صلة ما أيها الرجل! فلتحفظ الاحترام الواجب لي، أو فاخرج!

مشلينيا: صفحا .. إنه اليأس ..

بريسكا: وبعد .. فماذا تُريد من بقائك هنا؟

مشلينيا: صدقت .. هذا مستحيل .. بقائي هنا .. مستحيل ..

بريسكا: نعم .. وإن كنت تأمل في النظر إلى وجهي فثق أنني سوف أمنع عنك هذه الصورة وأحطم هذا التمثال.

مشلينيا: وأي نفع؟ لقد قلتها الآن ليس بيني وبينك صلة ما.

بريسكا: وهيهات لروح أحدنا أن يتصل بروح الآخر.

مشلينيا: نعم .. نعم .. بيننا الهوة السحيقة .. هوة ثلاثمائة عام!

بريسكا: بل شيء آخر .. قلته أنت الساعة ولن أنساه إن الأخرى ذات الصوت الملائكي أعـمق قلباً وأجـمل وداعة وأصـفى نفساً! إذن اذهب إليها يا هذا! فإن هذا الزمان كما قلت أنت لم يعد فيه صفاء في النفوس ولا عمق في القلوب ولا وداعة سماوية، ولا شيء واحد من تلك الأشياء التي تُحبها ..

مشلينيا (في ذهول): بريسكا ..!

بريسكا: قلتُ لكِ اني اكره سماع هذا الاسم.

مشلينيا: ولكنه اسمك!

بريسكا: من سوء الحظ! ليت لي اسم آخر وصورة أخرى!

مشلينيا: لو كان ذلك لما كنت وجدتكِ ولكن مصيري كمصير يملخا ومرنوش!

بريسكا: قلتُ لكِ انك لم تجدني بل وجدتِها هي ..

مشلينيا (في شبه فرح): نعم وجدتِها.

بريسكا (تكتّم تأثراً): نعم. وجدت ورأيت وأحببت كل ما هو لها الاسم والصورة.

أما كل ما هو لي .. ومع ذلك فماذا يهمك؟ انك فرِح أنك وجدتِها ..

مشلينيا: نعم. وجدتِها.

بريسكا: نعم ..

(تجفف دمعة سقطت من عينيها برغمها.)

مشلينيا: أتبكين؟

بريسكا: اخرج من هنا. اني لأرجو منك ..

مشلينيا (في فرح وذهول): يا للعجب! اني لم أرك قط تبكين!

بريسكا: لم ترها قط تبكي! نعم. لأن الملائكة لا تبكي. إنها رقيقة دقيقة لا تتحمّل

البكاء. وقطرة دمع واحدة قد تُدمّر تركيبها اللطيف!

مشلينيا: إذن لماذا بكيتِ؟

بريسكا: لم أبكِ.

مشلينيا: هذه الدمعة التي رأيتهَا الآن.

بريسكا: أنت أعمى. لا ترى ..

مشلينيا (في سذاجة وذهول): ربما. بل إني لأعترف بأنني لا أرى شيئاً الآن .. ولا أعي أية حقيقة. إني كإنسان يعميه نور .. نور كثير وسط عالم من الأحلام .. فمهما أرَ وأسمع من حقائق هائلة فهي عندي بسمات أو نسيمات تمرُّ دون أن تترك أثراً فيما أنا فيه. ما هي ثلاثمائة العام؟! وما هي تلك البراهين التي تستطيع أن تثبت لي أنك لست إِيَّاهَا؟! وما هو ذلك الويل المروع الرهيب الذي يتربّص بي إذ ينكشف لي أنك امرأة أخرى. وأن بيننا هوة؟! كل هذا لا يهمني الآن لأنني عائش الآن في حقيقة واحدة أني سعيد هنا .. وأن قلبي هنا!

بريسكا (تتحرك ذاهبة): إذن ابق هنا.

مشلينيا (في خوف): وأنت؟!

بريسكا: وما شأنني بك؟

مشلينيا (في قنوط): لا تذهبي! لا تذهبي سريعاً .. لا تذهبي ..

بريسكا: ماذا تريد مني؟ ينبغي لك أن تصحو .. أن الوقت لأن تُبصر ..

مشلينيا: لا أريد. لست أريد أن أبصر الآن. الإبصار لي موت. أتريدون أن أموت؟

بريسكا: لو أنني في مكانك لآثرت اللحاق بها في السماء ..

مشلينيا: إني الآن في السماء .. معك في السماء ..

بريسكا (في مرارة): في سماء خيالك أيها المجنون!

مشلينيا (ضارِعاً): بريسكا! لا تتركيني! لا تتركيني وإلا سقطت في الجحيم.

بريسكا (تخلع الصليب الذهبي من جيدها): أعطيك شيئاً يمنعك من السقوط .. هذا

الصليب الذهبي ..!

مشلينيا: هذا الصليب الذي أهديتك إِيَّاه؟

بريسكا (تمده إليه): بل الذي أهديته إليها هي .. إني أردده .. فهو ليس لي ..

مشلينيا: بل هو لك.

بريسكا: لن يستطيع صدري حمله بعد اليوم. إن جسدي ليرجف من لمسها الآن كما لو أنه أفعى لادغة ..

مشلينيا: إنك تخيفيني ..

بريسكا (تُشير إلى يده): أليست هذه اليد ذاتها التي وضعت هذا الصليب على صدرها هي منذ ثلاثمائة عام؟! ..

مشلينيا: ثلاثمائة عام!

بريسكا: وهاتان الذراعان الفتيتان، أما التفتا حول خصرها المرهف الدقيق؟! ..

مشلينيا: ماذا تقولين؟

بريسكا: وهاتان الشفتان وما زالتا، للأسف، جميلتين .. ومن يدري .. لعلهما أيضًا ..

..

مشلينيا: اسكتي ..

بريسكا: ممّ خفتَ يا خطيب جدتي؟! ..

مشلينيا: هذا .. مُروّع! ..

بريسكا: والآن بعد هذا كله تكاد تلمس جسدي هذه اليد وهاتان الذراعان و...

مشلينيا: كفى .. كفى! ..

بريسكا (تُشير إلى جسدها): نعم .. هذا الجسد! انظر يا حبيب جدتي .. ألا تعرف كم عمره؟ عشرون ربيعًا فقط.

مشلينيا (يُخفي وجهه براحتيه): يا لفضاعة ما تقولين! ..

بريسكا: أرأيت؟! ما دُمنّا في عالم القلب فلن نرى إلا نورًا .. ذلك هو النور الذي تحكي عنه ..

مشلينيا: نعم .. نعم ..

بريسكا: وكان ينبغي أن تذكر الجسد المادي لننزل إلى عالم العقل فنرى الفضاء والهول والشقاء الأدمي الذي ينتظرنا ..

مشلينيا: نعم .. نعم .. الوداع! يا .. يا .. لست أجسر! الآن أرى مصيبتى وأحس عِظَم ما نزل بي. لا مرنوش ولا يملخا رُزئًا بمثل هذا .. إن بيني وبينك خطوة .. بيني وبينك شبه ليلة .. فإذا الخطوة بحار لا نهاية لها. وإذا الليلة أجيال .. أجيال .. وأمد يدي إليك وأنا أراك حيّة جميلة أمامي فيحول بيننا كائن هائل جبار هو التاريخ. نعم، صدق مرنوش .. لقد فات زماننا ونحن الآن ملّك التاريخ .. ولقد أردنا العودة إلى الزمن ولكن التاريخ ينتقم .. الوداع!

بريسكا (ترنو إليه طويلاً وهو ينصرف حتى يختفي فتقول في صوت خافت عميق): الوداع يا مشلينيا!

(ستار)

الفصل الرابع

(منظر الفصل الأول عينه: الكهف «بالرقيم». يملixa ومرتوش ومشلينيا مُمدّدون على أرض المكان كالموتى أو المحتضرين .. والكلب قَطْمِير قابع على مقربة منهم .. سُكون عميق ..)

مشلينيا (في صوت ضعيف): مرتوش! (مرتوش لا يجيب) يملixa! (يملixa لا يجيب) أحس الموت .. (لا يسمع جوابًا. يسكت لحظة) أين نحن يا مرتوش؟ نحن في الكهف .. ولم نغادر قط الكهف .. كم لبثنا يا مرتوش؟ (لا جواب) يومًا أو بعض يوم؟ (ما من مجيب) يملixa! أين الطعام الذي ذهبت لتأتي به؟ إني جائع .. أصابني الهُزال .. سأموت .. (لا جواب) كلا .. ليس الجوع يؤلمني بل هواء المكان. أكاد أختنق، أكاد أختنق ها هنا .. إنا رقدنا كثيرًا ونمنا طويلًا. انهضأ أيها البليدان! .. لقد رأيتُ أحلامًا مفزعة .. (لا يجيبه أحد فينهض ويتلمس باحثًا عن مرتوش ثم يهزه بيده) مرتوش! .. مرتوش ..

مرتوش (في صوت ضعيف جدًّا): آه .. من؟ ..

مشلينيا: أنا مشلينيا ..

مرتوش: دع ... دعني ..

مشلينيا: ما بك ..؟ أُمريض؟ ..

مرتوش: إنه .. يقترب ..

مشلينيا: من ..؟ ماذا ..؟

مرنوش: المركب ..

مشلينيا: أي مركب؟!

مرنوش: الذي سيحملنا إلى .. إلى حيث يجب أن نكون ..

مشلينيا: لا .. يا مرنوش، ليس هناك مركب مقبل. بل يجب أن نذهب نحن على أقدامنا .. إننا نمنا طويلاً .. وأن لنا أن نخرج ..

مرنوش: نخرج؟!

مشلينيا: نعم .. نعم. إن المذبحة بلا شك قد انتهت ودقيانوس قد هداً ثأره ..

مرنوش: ربّاه ..! أهو .. بحران الموت؟!

مشلينيا: نعم. أنت في بحران لأنك تتكلم عن مركب! لعله الضعف! .. أنا كذلك أحس كأن قدمي لا تستطيعان حملي .. ومع ذلك ينبغي أن نخرج من هذا المكان .. فقد حلمت أحلاماً مزعجة ..

مرنوش: ماذا ..؟

مشلينيا: نعم يا مرنوش. لقد رأيت كأن أناساً ذوي منظر غريب دخلوا علينا الكهف واقتادونا إلى القصر. فإذا نحن نرى هناك كل شيء قد تغيّر. فالملك ليس بدقيانوس. وطرسوس ليست بطرسوس. يا للويل! وبريسكا .. حتى بريسكا رأيتها فلم تعرفني، وزعمت أنها تشبهها وليست هي .. وأن الأخرى ماتت عذراء منذ ثلاثمائة عام! وأننا عشنا كذلك ثلاثمائة عام.

مرنوش (في صيحة): آه .. أهذا حلم؟!

مشلينيا: مزعج كما ترى ..

مرنوش: أحلم هو أم حقيقة؟

مشلينيا: حقيقة؟!

مرنوش: نعم .. لقد خرجنا حقيقة ثم عدنا ..

مشلينيا: متى؟! إنك لفي بُحْران أيها المسكين!

مرنوش: بل أنت .. بل أنت ..

مشلينيا: كيف؟ أكان يقظةً كلُّ ما قلتَ! أعشنا ثلاثمائة عام؟! وبريسكا ليست بريسكا؟ ما هذا الخرف؟ ما هذا الخلط؟ أيستطيع عقل أن يتخيَّل كل هذا؟

مرنوش: إني رأيتُ عين ما رأيتَ .. أكنت أحلم أنا أيضًا؟

مشلينيا: ماذا حلمتَ أنت؟

مرنوش: أنهم دخلوا علينا كما قلت وأن البلد غير البلد وأن أهلي .. آه .. يا للويل! .. أن مكان بيتي سوق للسلاح، وأن ولدي مات في سن الستين منذ ثلاثمائة عام وقد شاهدت قبره المتهدم بعيني رأسي!

مشلينيا: مات في سن الستين! ابنك الصغير! وأنتَ لم تبلغ بعد الأربعين! أليس هذا خلط حلم؟!

مرنوش: نعم .. لا .. ربَّاه أحلم هذا حقًا أم يقظة؟!

مشلينيا: بل حلم أيها المسكين.

مرنوش: إذن ولدي لم يزل حيًّا .. كما تركته؟

مشلينيا: نعم .. وبريسكا لم تزل خطيبتِي، وستُلقِي بنفسها في أحضاني إذ تراني؟

مرنوش: إنهما في قيد الحياة .. لست أصدق .. بل ولمَ لا؟ إنا لم نغادر الكهف. فكيف تمر ثلاثمائة عام في لحظة، ولكن لا .. بل نعم .. ربَّاه .. الرحمة! .. لقد فقدت التمييز ..

مشلينيا: ثق أنه حلم.

مرنوش: فلنسل يملixa .. يا يملixa! (يملixa لا يجيب) أيقظ يملixa!
مشلينيا (يهز يملixa): قُمْ .. أيها الراعي! .. (يملixa يتحرّك ويئن) استيقظ! ..

يملixa (في صوت ضعيف): أين .. أنا؟

مشلينيا: في الكهف.

يملixa: ألم أمت بعد؟

مرنوش: يملixa ..!

يملixa: من .. يُناديني ..!

مرنوش: يملixa ..! أحلم هو أم حقيقة؟

مشلينيا: أجب يا يملixa! أخرجنا حقًا من هذا المكان؟!

يملixa: ماذا .. أسمع؟

مشلينيا: ها نحن أولاء الثلاثة .. وقطمير رابض معنا .. وقد كنا نائمين ..

يملixa: يا للمسيح! .. أكان حلمًا ..؟

مشلينيا: أنت أيضًا رأيت؟ حدّثنا بما رأيت.

يملixa: ربّاه!

مرنوش: تكلم يا يملixa!

يملixa: ألم يدخلوا علينا إذن حقيقة ويقتادونا إلى القصر؟

مرنوش: أنت أيضًا رأيت ذلك؟!

يملixa: وأعجب منه .. وأشدّ هولًا! طرسوس ليست بطرسوس بل عالم آخر وجيل

آخر لم أستطع الحياة فيه .. لا أنا ولا قطمير كلبي ..

مشلينيا: عجبًا!

مرنوش: مشلينيا! أَوَيْمُكُنْ أَنْ نَحْلُمَ جَمِيعًا حَلْمًا وَاحِدًا مُتَشَابِهًا؟!

يمليخا: أَكُنْ هَذَا حَلْمًا؟ مرنوش! مشلينيا! أَمَا خَرَجْنَا حَقِيقَةً مِنَ الْكَهْفِ! وَهَذَا الرَّعْبُ الَّذِي رَأَيْتَ فِي الْمَدِينَةِ أَحَدَثَ كُلِّ هَذَا فِي رَأْسِي وَأَنَا نَائِمٌ هُنَا؟!

مرنوش: مشلينيا! أَيْرَى ثَلَاثَتَنَا حَلْمًا وَاحِدًا؟

مشلينيا: وَمَا يَمْنَعُ؟ نَحْنُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَفِي حَالٍ وَاحِدَةٍ تَتَسَلَطُ عَلَيْنَا أَفْكَارٌ وَاحِدَةٌ.

يمليخا (في فرح): إِذَنْ كَانَ حَلْمًا! وَإِذَا خَرَجْنَا الْآنَ وَجَدْنَا عَالَمَنَا الَّذِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعِيشَ فِيهِ.

مرنوش: وَافْرَحْتَاهُ وَلَدِي حَيَّ يَنْتَظِرُ هَدَايَا وَلَعْبًا؟!

مشلينيا: وَبَرِيصًا .. يَا لِلْهَوْلِ! إِنِّي أَرْتَعِدُ مِمَّا رَأَيْتَ فِي الْحَلْمِ! إِنَّهَا انْقَلَبَتْ حَفِيدَةٌ مِنْ حُفْدَائِي، وَإِذَا يَدِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى جَسَدِهَا. وَيَلَاهُ ..! الْجَسَدُ .. الْجَسَدُ .. أَذْكَرُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، إِنَّهَا هِيَ الَّتِي فَاهَتْ بِهَا فِي ذَعْرِ، وَفَهَمْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّ شَيْئًا يَفْصِلُ أَحَدَنَا عَنِ الْآخَرِ فَهَرَبْتُ يَائِسًا إِلَى الْكَهْفِ لِأَمُوتَ جَوْعًا ..

مرنوش: نَعَمْ .. نَحْنُ كَذَلِكَ هَرَبْنَا إِلَى الْكَهْفِ لِنَمُوتَ جَوْعًا ..

يمليخا: يَا لِلْمَسِيحِ! نَعَمْ .. نَعَمْ ..

مشلينيا: لَعَلَّ كُلَّ هَذَا مِنْ بَحْرَانِ الْجُوعِ. لَقَدْ نَمْنَا مِنْذُ لَجَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ فِرَارًا مِنْ دَقْيَانُوسَ .. فَلَمْ نَذُقْ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْنَ شَيْئًا ..

مرنوش: بَحْرَانِ الْجُوعِ! أَذْكَرُ أَنَا بَعَثْنَا يَمْلِيخَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَشْتَرِيَ لَنَا طَعَامًا ..

يمليخا: نَعَمْ .. نَعَمْ ..

مشلينيا: كَانَ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَحْرَانِ.

يمليخا: لقد خرجت فصادفت فارسًا صيِّدًا ذا هيئة غريبة! ربَّاه .. نعم هو بحران!

مرنوش: حلم .. بحران .. حقيقة؟ يا إلهي! لم أعد أستطيع التمييز ..

مشلينيا: نعم. هو حلم كالحقيقة.

يمليخا: وواضح جلي .. كأنه حقيقة ..

مرنوش: مشلينيا ..! مشلينيا. كيف عرفت أنه حلم؟!

مشلينيا: إن لم يكن ما رأينا حلمًا .. فنحن الآن في حلم ..

مرنوش: ولمَ لا نكون الآن في حلم؟

يمليخا: نعم .. نعم يا رب! ما الحد الفاصل بين الحلم والحقيقة؟ لقد اختبل عقلي.

رُحماك أيها المسيح!

مشلينيا: أتريدان القول إنا عشنا ثلاثمائة عام في الحقيقة؟! ..

مرنوش (ويمليخا معًا): ثلاثمائة عام! ..

مشلينيا: الحلم وحده هو الذي يستطيع فيه الإنسان أن يعيش مئات الأعوام دون أن

يشعر بمرها ..

مرنوش: صدقت يا مشلينيا ..

مشلينيا: أحمد الله أنه حلم .. وإلا كنت فقدت بريسكا إلى الأبد ..

مرنوش: نعم .. وا فرحتاه! .. وأنا .. كذلك ..

يمليخا: وأنا أيضًا .. إذن غنمي لم تنزل ترعى الكلاً في موضعها؟

مشلينيا (بعد لحظة .. في صوت المُتأمل المفتون): ومع ذلك يا مرنوش ..

مرنوش: ماذا .. ماذا؟

مشلينيا: مع ذلك .. شدّ ما كان حلمًا لذيذاً!..

مرنوش: لذيذاً؟ ماذا تقول؟

مشلينيا: لم أر بريسكا قط على مثل ذلك الجمال والذكاء الذي رأيتُ في الحلم! لقد كان بيدها كتاب وكان حديثُها حديثَ فطنٍ هذبته القراءات. هذا عجيب! إن بريسكا الساذجة البسيطة التي كُنْتُ أقرأ لها خفية الكتاب المقدّس وهي لا تكاد تفهم عنه .. قد قلبها الحلم أمام عيني امرأة ذكية الفؤاد عالية الفكر .. ما أجملها! نعم ما أجملها! مرنوش .. مرنوش ..

مرنوش: ماذا بك؟

مشلينيا: مرنوش! أخشى أن أقول إنني .. أحببت بريسكا التي في الحلم ..

مرنوش: ما هذا الهذيان؟ ..

مشلينيا (متنهداً في لذة): كم يُجملُ الحلم الأشياء والأشخاص!

مرنوش: وكم يشوهها ويبشعها أيضاً!

مشلينيا: نعم .. نعم .. إنها كذلك كانت في الحلم كالغريبة عني لا تصلها بي صلة .. ثم فكرة الشبه .. وفكرة الحفيدة .. تلك كلها من فنون الحلم التي يبشع بها الحقيقة. نعم يا مرنوش .. إن الحلم أحياناً كالفن لا ينقل الحقيقة كما هي بل يسبغ عليها من عبقريته جمالاً لم يكن أو بشاعة لم تكن!

مرنوش: صدقت .. ويرفع الأشخاص والأشياء .. لقد رأيت كأنهم يدعونني

بالقدّيس!

مشلينيا: عجباً! وأنا كذلك ..

مرنوش: إنني أفضّل الحقيقة على خفضها وضالّتها ..

مشلينيا: وأنا أيضًا .. ولكن .. وا أسفاه! لو أنها كانت في الحقيقة على هذا الجمال والذكاء .. ما أجملها! لو رأيتها يا مرنوش! ما أجملها وهي تتكلم .. لقد كانت في ثوب غريب لكنه جميل .. ولقد ارتديت أنا كذلك ثوبًا غريبًا جميلًا ..

يمليخا (يئن متوجعًا): آه ..

مرنوش: لمن هذا الأنين؟ يملخا !..

مشلينيا: أريض أنت يا يملخا؟ ..

يمليخا (في صوت كالحشرة): كلا .. بل ...

مشلينيا: إنه الجوع .. إني أحس ضعفًا هائلًا .. لماذا لا نبعث أحدًا يشتري لنا طعامًا؟

مرنوش: نعم .. نعم .. ويستطلع لنا الخبر .. اذهب يا يملخا ..

يمليخا: آه .. يا للمسيح! .. الرحمة ..

مرنوش: ما بك .. يا يملخا! ..

(يمليخا يلفظ آهة.)

مشلينيا: كلنا ضعيف مثلك .. قم .. انهض .. واذهب واطعم ممًا تشتريه كي تسترد قوتك ..

مرنوش: نعم .. قم يا يملخا .. انهض!

يمليخا (يُحاول النهوض): آه .. سأنهض .. سأ ... آه .. (يقع على الأرض محشرجًا).

مشلينيا: يملخا! يملخا ..

مرنوش (في ارتياح): سمعت صوت سقوط جسم ..

مشلينيا (في صوت خافت مرتاع): لمن هذه الحشرة؟ يملخا!

يملخا: إني .. أموت.

(مشلينيا ومرنوش في سكون رهيب.)

يملخا (بعد لحظة): الوداع! .. أشهد الله والمسيح .. أني أموت ولا أعرف .. هل كانت حياتي .. حلمًا ؟ أم .. حقيقة ..؟

(صمت.)

مرنوش (بعد لحظة): يملخا ..

مشلينيا (بعد لحظة): يملخا ..

(سكون ولا من مجيب.)

مرنوش: مات ..

مشلينيا (بصوت خافت جزع): نعم ..

مرنوش (بعد لحظة صمت): مشلينيا .. أسدل على وجهه غطاءً!

مشلينيا: أي غطاء؟ ..

مرنوش: خذ جزءًا من ثيابي .. إني أكاد أختنق فيها ..

مشلينيا (في صوت مُتغيّر): أنا أيضًا .. أختنق ..

مرنوش (صائحًا وقد لمس ثيابه): مشلينيا .. مشلينيا ..!

مشلينيا: ماذا؟

مرنوش: مشلينيا ..! ثيابي!

مشلينيا: ما بك يا مرنوش؟

مرنوش: ربّاه. مشلينيا ..! افحص ثيابك!

مشلينيا (بعد لحظة، في رعب): مرنوش! نعم .. نعم .. أدركت .. أدركت يا للهول! أممكن هذا؟

مرنوش: إنها ثياب الحلم يا مشلينيا ..

مشلينيا: أجل يا مرنوش ..

مرنوش: ما معنى هذا؟

مشلينيا: لست أدري. ربّاه .. إني خائف!

مرنوش: الآن .. لم يبقَ شك ..

مشلينيا (في خوف): فيم يا مرنوش ..؟

مرنوش: في أنها كانت يَقْطَعَة .. (مشلينيا لا يحير جوابًا) كانت حقيقة .. (مشلينيا لا يحير جوابًا) ماذا دهاك؟

مشلينيا: حقيقة؟!

مرنوش: عَذَّبَ نفسك أيها المسكين! أمّا أنا فلا يهولني أن أعلم هذا. إني إنما رجعت لأموت لأن قلبي كان قد مات. إنك أنت الذي أوهمنا أنه حلم، لقد أمكنك أن تخدع منا العقل؛ ولكن القلب لم يُخدَع؛ لأن قلبي كان قد مات ..

مشلينيا (يئن): مرنوش! ..

مرنوش: اعترف أيها البائس أنك ما كنت رجعت إلا لتموت!

مشلينيا: نعم يا مرنوش!

مرنوش: إذن ما الذي أوحى إليك بهذا السراب؟!

مشلينيا: أقر بأن قلبي لم يكن قد مات ..

مرنوش: نعم .. القلب .. نافورة الأحلام والآمال! ماذا كنت تُؤمِّل بعد أيها الشبح؟

مشلينيا: لا شيء.. لم أكن أوْمَل في شيء .. لقد رجعت وأنا فاقد الأمل في الحياة، ولكن .. الآن أحس أنني أحب يا مرنوش. أحب بكل ما يستطيعه قلب ..

مرنوش: تُحب؟!!

مشلينيا: سيان عندي أن تكون هي أو لا تكون. أحب هذه المرأة ذات الكتاب التي رأيتها .. في اليقظة!

مرنوش: أنت جنتت يا مشلينيا ..

مشلينيا: لم أجن. إني فتى ولي قلبٌ فتِيّ. قلب حي. كيف تُريد أن أدفن قلبي؟ كيف أدفن نفسي حيًّا، ومن أحب على قيد الحياة، لا يفصلني عنها فاصل؟! ..

مرنوش: بل يفصلك عنها فاصل.

مشلينيا: الزمن؟

مرنوش (في صوت خطير هائل): نعم ..

مشلينيا (في يأس): آه .. يا مرنوش! الرحمة .. أريد أن أعيش .. ارحمني يا مرنوش! أريد أن أعيش!

مرنوش: سوف تعيش ..

مشلينيا (في فرح): أصبح يا مرنوش؟ أستطيع أن أعيش!

مرنوش: نعم .. بين جلدتي كتاب!

مشلينيا (يائسًا): آه ..

مرنوش: لا فائدة من نزال الزمن. لقد أرادت مصر من قبل محاربة الزمن بالشباب .. فلم يكن في مصر تمثال واحد يُمثِّل الهرم والشيخوخة، كما قال لي يومًا

قائد جند عاد من مصر، كل صورة فيها هي للشباب من آلهة ورجال وحيوان .. كل شيء شاب .. ولكن الزمن قتل مصر وهي شابة وما تزال ولن تزال .. ولن يزال الزمن يُنزل بها الموت كلما شاء، وكلما كُتب عليها أن تموت .. (مشلينيا لا يجيب) مشلينيا! (مشلينيا لا يجيب ويتكلم مرنوش بعد لحظة في صوت ضعيف) مشلينيا! إن الكلام قد أنهك ما بقي من قواي. أحس البرودة تسري في جسدي .. قد نسينا أنا في طريق الموت منذ أسابيع! (مشلينيا لا يجيب، مرنوش في صوت خائر) مشلينيا لماذا لا تجيبني؟

مشلينيا: ماذا تُريد مني؟

مرنوش (ضعيف الصوت): أصغ إليّ .. لا تحاول المستحيل.

مشلينيا: لست أحاول شيئاً.

مرنوش (متخاذل الصوت): افهم أنك رجل ميت.

مشلينيا: أفهم ..

(صمت عميق.)

مرنوش (في شبه أنين): مثل .. ينيا .. (مشلينيا لا يجيب) سأذهب .. يا .. مشلينيا

..

مشلينيا (كأنما يُخاطب نفسه): الزمن! ما هو الزمن؟!

مرنوش (يحتضر): مشلينيا .. ضع .. يدي اليسرى في يد يملخا .. (مشلينيا

واجم) مات المسكين .. ولم .. يعرف الحقيقة .. ومع ذلك .. هل عرفناها .. نحن؟

مشلينيا: ماذا تعني .. يا مرنوش؟

مرنوش: أحلام .. نحن أحلام الزمن ..

مشلينيا: الزمن يا مرنوش؟

مرنوش: نعم .. الزمن يحلمنا ..

مشلينيا: كي يحونا بعد ذلك؟!

مرنوش: إلا من استحق الذكر فيبقى في ذاكرته ..

مشلينيا: التاريخ؟!

مرنوش: نعم.

مشلينيا (في قلق): أهذا هو كل ما نرتجيه بعد الموت؟ أهذا كل تلك الحياة الأخرى

!؟..

مرنوش: نعم.

مشلينيا (في قلق): مرنوش؟ أنت إذن لا تؤمن بالبعث؟!

مرنوش: أحق! أولم نر بأعيننا إفلاس البعث؟!

مشلينيا: أستغفر الله! أنت الذي عاش مسيحياً تموت الآن كوثنى؟!

مرنوش (في صوت خافت): نعم .. أموت الآن ..

مشلينيا: مجرداً عن الإيمان ..

مرنوش: مجرداً .. عن كل شيء .. عارياً كما ظهرت .. لا أفكار ولا عواطف ..

ولا عقائد ..

مشلينيا: رحمة لك أيها التَّعَس!

مرنوش (مشلينيا ينظر إليه ولا يجيب): وقتما تلتحق بي .. ضع يدك .. في يدي

اليمنى ..

مشلينيا: حاشا أن أضع يدي في يد وثنى!.

مرنوش: إذن .. (مشلينيا ينظر إليه صامتًا وهو يموت) .. الوداع! (حشجة ثم صمت).

مشلينيا (بعد لحظة): مرنوش! .. (مرنوش لا يجيب) مرنوش! صديقي! أخي! .. (لا يسمع جوابًا) مات .. مرنوش! (ينظر إلى السماء) اللهم ارحمه رحمة واسعة! إنه قانط فقد قلبه ولا يعي ما يقول! (صمت عميق) لم يبق سواي وكلب الراعي! ذهب يملixa ولم يذكر كلبه .. (يُنَادِي) قَطمير ..! قَطمير ..! (لا يجيبه سوى الصدى) لعله مات كذلك وهو رابض فلم ينتبه إليه أحد! ولم يستطع المسكين مقاومة الجوع (لحظة صمت) هو أيضًا عاش حياته وذهب كأنه ظل كلب مر فوق حائط! (لحظة) ما الفرق بين قَطمير وظله؟! (لحظة تأمل) رباه! أخشى أن يكون مرنوش قد أصاب..! (لحظة تأمل أخرى) كلا. كلا .. لقد فقد مرنوش البصيرة .. إنا لسنا حلمًا .. لا .. بل الزمن هو الحلم .. أمّا نحن فحقيقة .. هو الظل الزائل ونحن الباقون .. بل هو حلمنا. نحن نحلم الزمن. هو وليد خيالنا وقريحتنا ولا وجود له بدوننا. إن تلك القوة المُركّبة فينا، وهي العقل، منظم جسمنا المادي المحدود .. آلة المقاييس والأبعاد المحدودة .. هو الذي اخترع مقياس الزمن. ولكن فينا قوة أخرى تستطيع هدم كل ذلك أولم نعش ثلاثمائة عام في ليلة واحدة فحطّمنا بذلك الحدود والمقاييس والأبعاد؟ نعم ها نحن أولاء استطعنا أن نمحو الزمن .. نعم تغلبنا عليه .. (لحظة) لكن .. وا أسفاه! بريسكا ما يحول بيني وبينها إذن؟ الزمن؟ نعم محونا، ولكن ها هو ذا يمحونا .. الزمن ينتقم. إنه يطردنا الآن كأشباح مخيفة ويُعلن أنه لا يعرفنا ويحكم علينا بالنفي بعيدًا عن مملكته .. ربي! هذه المباراة الهائلة بيننا وبين الزمن أتراها انتهت بالنصر له؟! (بعد لحظة منهوكًا) آه .. لقد تعبت .. تعبت من الكلام ومن التفكير .. ومن الحياة. بل من .. الحلم .. هذه ليست الحياة. بل هي حلم مُشوَّش مضطرب .. إلى الحقيقة إذن .. الصافية! الجميلة! نعم إن الحقيقة لا يُمكن أن تكون بهذا الاضطراب ولا يمكن كذلك ألا تكون هناك حقيقة .. (لحظة) أشهد الله .. أني أموت مؤمنًا! أشهد المسيح أني أومن بالبعث! لأن لي .. قلبًا يُحب. (صمت، تظهر بعد لحظة بريسكا يتبعها غالياس).

بريسكا (تقف جامدة في رهبة): يُخَيِّل إليّ أني سمعت صوتًا هنا ..

غالياس: مستحيل يا مولاتي! إنهم جثث هامة كما ترين .. ولقد مضى نحو شهر وهم محبوسون بلا طعام.

بريسكا: صوت كالشرجة يتكلم ..

غالياس: لعله صدى دخولنا الكهف ..

بريسكا: غالياس! .. أنت مستعد لتنفيذ ما قلت لك؟

غالياس: مولاتي! أتوسّل إليك أن تتفكري ..

بريسكا: شبعنا من توسلاتك شهراً يا غالياس. أريد أن أعرف الآن وقد جاء يوم العمل أمستعد أنت أم لا؟

غالياس: إني دائماً مستعد لتقديم حياتي القصيرة لك يا مولاتي ..

بريسكا: ألم يرني أحد وأنا آتية هنا؟

غالياس: كلا يا مولاتي .. لكن ...

بريسكا: ماذا؟

غالياس: الملك .. إنه يتأهب الساعة للخروج في الموكب وقد يسأل عنك في القصر لتخرجي معه .. إن هذا مهرجان ديني عام وأنت صاحبة الفكرة في إقامته؟

بريسكا: بل الشعب يُمجّد قديسيه.

غالياس: مولاتي! .. ألسنت أنت الموحية إلى الملك ببناء معبد عليهم؟

بريسكا: وبعد؟

غالياس: قد يطلبك الملك إلى جانبه اليوم إذ يحتفون بسد باب الكهف ووضع الأساس؟

بريسكا: لقد دبّرت الأمر .. واعتذرت بالمرض. (صمت عميق يُسمع فيه صوت حشرة) (بريسكا في رهبة) غالياس! أسمعت؟ ..

غالياس: ماذا .. يا مولاتي؟

بريسكا: إلهي؟ أهنا .. ما زالت حياة .. (تتردّد ثم تتقدّم خطوة).

غالياس: إلى أين يا مولاتي! لا تذهبي ..

بريسكا: دعني .. دعني .. مشلينيا .. (تندفع باحثة عنه بين الجثث).

مشلينيا (في صوت خافت): بريسكا ..

بريسكا (في فرح جنوني): تلفظ اسمي! أنت حي؟! أنت حي بعد؟ مشلينيا .. مشلينيا .. لا تمت، غالياس أسرع .. قليلاً من الماء .. قليلاً من اللبن .. من الطعام .. أسرع .. أتوسّل إليك. أتوسّل إليك ..

(غالياس يخرج مسرعاً).

مشلينيا (في بطء وجه): لا .. نفع ..

بريسكا: بل عش .. عش لي. لا تمت. إني أحبك.

مشلينيا: الز .. من ..

بريسكا: الزمن؟ لا شيء يفصلني عنك إن القلب أقوى من الزمن!

مشلينيا: أحلم .. آخر .. سعيد ..؟

بريسكا: بل حقيقة .. حقيقة خالدة يا مشلينيا .. أنا بريسكا. وليس يهمني بعد أن أكون إياها أو لا أكون بل من يدري لعلّي هي! إن الشبه بيننا ليس مصادفة، ومقابلتنا ليست مصادفة كذلك .. مقابلتنا في هذا الجيل! إنك بُعثت لي وبُعثت أنا لك .. بعثاً من نوع آخر .. قم .. وأخي .. وعش ..

مشلينيا: يا للسعا .. دة ..!

بريسكا: تجلّد يا مشلينيا تجلّد ..

مشلينيا (يُجاهد): نعم .. لست أريد .. لست أريد الموت .. ربّاه! أنقذني .. ها هي
ذي السعادة .. ها .. قد قهرنا .. الزمن .. القلب قهر .. (تخونه قواه ..)

بريسكا (وهي ترفع رأسه بين ذراعيها): نعم .. نعم القلب قهر الزمن. انهض يا
مشلينيا، إني منذ حادثتك أول مرة كأني أُحبك منذ ثلاثمائة عام، وسوف أُحبك إلى
ألف الأعوام .. قم بالله .. تجلد .. تجلد .. تجلد!

مشلينيا: وا .. أسفاه ..

بريسكا (تحنو على وجهه وتتنظر إليه): فات الأوان؟ تُريد أن تبكي ولا تستطيع؟ لا
بأس! فلتهدأ نفساً! .. لم ينتهِ بعد كل شيء ..

مشلينيا: بر .. يسكا ..

بريسكا: نعم يا مشلينيا العزيز .. لن ينتهي كل شيء..

مشلينيا: إلى .. الملتقى ..

بريسكا: نعم إلى الملتقى ..

(تضع رأسه على الأرض في رفق وتطرق باكية في صمت.)

غالياس (يدخل مسرعاً حاملاً وعاءً): ها هو ذا وعاء من اللبن سرقته من أحد
البنائين خارج الكهف! (بريسكا لا تجيب) مولاتي؟ (بريسكا لا تتحرّك ويلتفت المؤدّب
إلى الجثة) ربّاه! فات الوقت!

بريسكا (في صوت باكٍ لا يكاد يُسمَع): نعم ..

غالياس (ينظر إليهما في صمت لا يجرؤ على الكلام وأخيراً): مولاتي! أتبكين؟
(بريسكا لا تجيب) إنكِ جيّت يا مولاتي على أنه ميّت منذ أسابيع ..

بريسكا: ليتتي وجدته كذلك ..

غالياس: قُضي الأمر! ماذا يُجدي إذن الآن الحزن والبكاء؟!

بريسكا: لست أبكي لنفسى يا غالياس .. أنتَ تعلم أنى لم أشأ المجيء إليه وهو على قيد الحياة، وانتظرت عن قصد طول هذا الشهر .. ألم أقل لك مُحال أن يجمعنا الحب في هذا العالم أو على الأقل في هذا الجيل؟

غالياس: إذن لِمَ تبكين يا مولاتي؟

بريسكا: آه .. يا غالياس! لو أنك تحس وتفهم .. يا للقسوة! إنى أبكي تلك السعادة التي لمعت كالبرق لحظة ثم انطفأت .. وهذا المشهد المؤلم الساعة .. مشلينيا يُجالد الموت ويتمسك بالحياة ويتشبث بها .. وفاضت روحه في اللحظة التي ظفر فيها بالسعادة، ولفظ النفس الأخير وهو يأمل في الملتقى. نعم إلى الملتقى يا حبيبي مشلينيا! هنا محال .. لكن في جيل آخر حيث لا فاصل بيننا.

غالياس: في جيل آخر؟!

بريسكا: نعم .. أو في عالم آخر ..

غالياس: صدقت .. صدقت يا مولاتي. إنى أعجب بإيمانك هذا ..

بريسكا: إِيَّاكَ وأن تشك يا غالياس ..

غالياس: حاشا .. يا مولاتي! إنى مؤمن .. مؤمن .. غير أن ...

بريسكا: ماذا؟

غالياس: غير أن إيمانك يبهرنى. إنك تتكلمين كالواثقة بحقيقة ما تقولين. بل كمن رأت وعاشت مرة في ذلك العالم الآخر! لا يا مولاتي .. إيمانك من نوع فوق طاقتي .. وفوق طاقة البشر فهمه .. ولعل صلتك بالقديس والقديسين ...

بريسكا: كلا، ليس هذا بالسبب أيها الأحمق.

غالياس: نعم .. أعرف ما تُريدين .. ولكن ...

بريسكا: ولكنك لا تفهم ولا تحس ولا تصدق.

غالياس: أصدق يا مولاتي .. أصدق .. لكن ربما لا أفهم ولا أحس ..

بريسكا: وما النفع أيها المسكين؟

غالياس: مولاتي! ما هو الحب الذي يفعل هذه الأعاجيب ويُحَلِّق فوق الأجيال كما تُحَلِّق ..

بريسكا: كما تُحَلِّق الفراشة فوق الأزهار ..

غالياس: نعم .. نعم .. ما هو؟!

بريسكا: هو .. هو .. أيها الشيخ الفاني .. ماذا أقول لك؟ وكيف أخبرك به؟

غالياس: يُخَيِّل إِلَيَّ أني قرأت شيئاً عنه يا مولاتي ..

بريسكا: لو كنت قرأت على الأقل قصة أوراشيما كما قرأتها أنا منذ قليل ..

غالياس: قصة أوراشيما؟ وماذا فيها غير ما أعرف؟

بريسكا: إنك لا تعرف شيئاً. ألا تذكر أني سألتك أين كان أوراشيما مدى القرون الأربعة، فلم تجب؟ آه .. لو أنك قصصت عليّ ذلك .. (لحظة ثم تقول كأنها ترى أمامها ما تقص) هناك .. على ساحل يوشا يمتد البحر؛ بحر أزرق ساكن في يوم صيف .. وقد خرج الفتى الصيَّاد أوراشيما بقاربه ورمى بشباكته وانتظر .. انتظر أكثر النهار فلم يظفر بصيد .. وعند الأصيل، وقد حان وقت العودة .. عودة حزينة ولا ريب .. غير موفقة. إنني أراها .. أرى كل ذلك الآن بخيالي .. نظر أوراشيما فألفى سلحفاة بحرية قد وقعت في الشرك، ففرح بها أي فرح .. ولكنه ذكر أن السلحفاة مُقدَّسة عند ملك البحر، وأن عمرها ألف عام، ويقولون عشرة آلاف، وأن قتلها لهذا حرام، فخلصها الفتى في رفق وأعادها إلى الماء بعد أن تلا صلاة رقيقة حارة للآلهة.

ولم يُصِب شيئاً بعدها، واشتد الحر وعمَّ الصمتُ والسكونُ البحرَ والهواءَ وكلَّ شيءٍ، فأخذت أوراشيما سِنَّةً من النوم؛ فاضطجع تاركًا القارب يسير الهوينى إلى غير قصد .. عند ذاك صعدت من البحر، كما يصعد الحلم، عادة جميلة ذات شعر أسود طويل يتدلى فوق أكتافها البيضاء، وأخذت تقترب منزلقة على سطح الماء في لطف النسيم حتى وقفت على رأس الفتى الناعس .. فانحنيت عليه، وأيقظته بلمسة خفيفة، ثم قالت له «لا تفرع! إن أبي ملك البحر أرسلني إليك أشكرك على طيب قلبك إذ أنت الآن أعدت الحياة إلى سلحفاة. والآن تعالَ معي إلى قصر أبي في الجزيرة التي لا يموت الصيف فيها أبدًا. وإذا شئت فإني أصير زوجتك ونعيش سعيدين طول الخلود ...». عجب أوراشيما ممّا سمع وبهره جمال بنت ملك البحر فأسلم نفسه لها، فتناولت أحد المجذافين وتناول هو الآخر وجعلا يسيران في صمت، متجهين بالقارب جهة الجنوب حيث تلك الجزيرة التي لا يموت الصيف فيها أبدًا .. وبلغاها أخيرًا. فأبصر الفتى فيها ما لم ترَ عين، من قصور مرصعة بجواهر البحر النادرة وكنوزه الباهرة ومن جمال عجيب يكتنفه في كل مكان .. وأقيمت له مآدب وتلقّى تحفًا غريبة وهدايا ثمينة من أهل مملكة البحر .. ثم أصبحت بنت ملك البحر زوجة له بعد أفراح دامت عامًا .. وغمرت أوراشيما سعادة لم يصحّ منها إلا بعد ثلاثة أعوام .. عندئذٍ تذكر أهله الذين تركهم في بلدة يوشا منذ خرج للصيد .. فتوسّل إلى امرأته أن تدعه يذهب يومًا واحدًا إلى وطنه يرى أهله ويعود إليها فلا يفارقها بعدئذٍ إلى الأبد .. فبكت امرأته في صمت ثم قالت له «ما دمت تريد الذهاب فافعل .. ولكنّي أخشى ذهابك كثيرًا لأنّي أخاف أن لا يرى أحدنا الآخر بعد الآن .. ولكنّي سأعطيك علبة صغيرة قد تعينك على العودة إليّ إذا فعلت ما أوصيك به لا تفتحها .. لا تفتحها مطلقًا .. مطلقًا .. مهما يحدث من أمر لأنك إن فتحتها فلن تستطيع رؤيتي أبدًا.» فوعدها أوراشيما خيرًا وودّعها ثم ابتعد عنها .. وقد جعلت تتلاشى خلفه كالحلم تلك الجزيرة التي لا يموت الصيف فيها أبدًا .. ووصل إلى بلده، فإذا هو يرى عجبًا كل شيء قد تغيّر! وعبثًا حاول الاهتداء إلى بيت أهله، وعبثًا حاول تعرّف وجه واحد من تلك الوجوه الغريبة التي صادفها في الطريق تنتظر إليه نظرات الدهشة والعجب .. ومرّ بشيخ مسن فسأله أوراشيما عن أسرته فبغت

الشيخ وبُهِتَ لحظة ثم صاح به «مِن أين أتيت أيها الفتى حتى تجهل أسطورة أوراشيما؟! إن أوراشيما خرج للصيد منذ أربعمئة عام فلم يرجع، وإذا زرت المقابر وجدت تذكّارًا له من الحجر قد أكلته السنون!» عند ذاك اختلط على أوراشيما الأمر وظن أنه يرى حلمًا أو سرابًا أو سحرًا .. وطفق يُسائل نفسه «ما معنى هذا؟» وذكر العلبة الصغيرة التي معه وخطر له أن فيها ما قد يكشف له هذا السر الغامض .. سر الزمن .. سر رؤيته أربعمئة عام ثلاثة أعوام .. لكنه تذكّر قول زوجته بنت ملك البحر ووعدده لها، فأحجم قليلًا. غير أن الشك عاد يُعذّبه وراح يذهب به كل مذهب حتى كاد يضل ويختبل. أترى في العلبة سحرًا؟ أتراه مسحورًا. أم هو إنسان فقد عقله؟ وما هو هذا السحر الذي في العلبة؟ ما هيئته وما تركيبه؟ وتتاسي الوعد للأسف وفتح العلبة ..

غالياس: ماذا وجد ..؟

بريسكا: لا شيء. لم يجد بها سوى دخان أبيض بارد تصاعد في بطن حتى ارتفع في الجو كغمامة الصيف ثم اتجه نحو الجنوب فوق سطح البحر الصامت.

غالياس: هذا كل شيء؟!!

بريسكا: هذا كل شيء. وعندئذ أدرك أوراشيما أنه محاسن سعادته بيده. وأنه لن يستطيع إلى الأبد أن يعود إلى حبيبته بنت ملك البحر ..

غالياس: وبعد؟

بريسكا: وبعد .. أحسّ لساعته أنه يتغيّر هو نفسه .. فإذا دمه يجري باردًا وإذا أسنانه تتساقط وإذا شعره يصير كالثّج بياضًا وأعضاؤه ترتعد وجسده يتقلص وقوته تتلاشى .. وإذا هو في لحظة يعود شيخًا هَرِمًا يرزح تحت وقر أربعمئة عام، وقد انبطح في انتظار الموت على ساحل البحر الأزرق الصامت الذي لم يتغيّر ..

(صمت عميق.)

غالياس (بعد تفكير): هو الدخان الأبيض الذي بالعلبة إذن ما كان يحفظه من فعل

الزمن!

بريسكا: نعم أيها البسيط!

غالياس: ولكنّي يا مولاتي لم أرَ بعد في هذه القصة كيف يُحَلَّق الحب فوق الزمن
مثل الفراشة فوق الأزهار؟

بريسكا: فات الأوان، لن ترى ذلك في هذه الحياة ..

(يُسمَع صوت ضجيج في الخارج ودق طبول ونفخ أبواق.)

بريسكا: اسمع يا غالياس .. اسمع! إنهم آتون ..

غالياس (ينصت): نعم .. هذا موكب الملك. مولاتي! .. أخشى أن يدخل الملك
الكهف مُودِّعًا قبل أن يأذن بالبدء في سد الغار ..

بريسكا: في هذه الحال .. ما العمل؟

غالياس (يُشير إلى تجاويف الكهف): تختبئين يا مولاتي في أحد هذه التجاويف.

بريسكا: نعم .. نعم ..

غالياس: ومع ذلك .. فلاذهب لاستقبال الملك حتى لا يرتاب في غيبيتي.

بريسكا: نعم .. اذهب ..

غالياس: وإذا دخل الملك فسأسبقه وستسمعين صوتي عاليًا كي تنتبهي ..

(يخرج مسرعًا بينما تقترب أصوات الأبواق والضجيج.)

بريسكا (وحدها فتتحني على مشلينيا): .. مشلينيا! إنك لم تتكث وعدًا .. ولم تفتح
علبة مُحَرَّمَة .. ولم يتغلب الشك يومًا على حبك فيُبدِّده دخانًا طائرًا، فهل يستحق مثلك
الفراق الأبدي عمن يحب؟! (تصمت وتُطرق .. إلى أن يذنو الضجيج من الباب).

غالياس (يصيح بالباب): ها هنا يرقد القديسون أيها الملك! (بريسكا تنهض بسرعة
وتختبئ .. ثم يدخل الملك وغالياس والصيَّاد ورُهبان وجند وحاشية).

الملك (يتراجع قليلاً أمام الجثث ويرسم على صدره علامة الصليب ويلتفت إلى راهب كبير): أيها الراهب!

الراهب (يتقدّم): مولاي!

الملك: ألا ترى أن تضع أجسادهم المقدسة في توابيت ثمينة؟

الراهب: كلا يا مولاي. فلنتركهم كما هم حتى يكون هناك فرق بين أولياء الله الصاعدين إلى السماء وبين البشر الماكثين في الأرض. إنهم ليسوا في حاجة إلى التوابيت، فهم عمّا قليل يصعدون ..

الملك: وهل من الحكمة أن نتركهم هكذا؟

الراهب: ما دُمنّا سنسد عليهم الكهف فهم في شبه قبر محكم.

الصيّد (يتقدّم): مولاي! أياذن لي مولاي؟ ..

الملك: تكلم أيها الصيّد! ..

الصيّد: لا ينبغي أن نسد الكهف عليهم.

الملك: لماذا؟

الصيّد: إنهم لم يموتوا يا مولاي ..

الملك: ماذا تقول؟

الصيّد: إنهم نائمون نومًا عميقًا كما في المرة الأولى .. وسوف يستيقظون بعد أعوام.

راهب آخر (يتقدّم): نعم يا مولاي! إنهم نائمون وسوف يستيقظون.

الصيّد: فإذا سدّنا عليهم فكيف يخرجون يا مولاي كما خرجوا في المرة الأولى؟

الملك: عجبًا! أنائمون هم الآن؟!

الراهب الأول: كلا .. أيها الملك .. بل هم ميتون حقيقة وسيصعدون إلى السماء ..

غالياس: نعم يا مولاي .. لقد ماتوا حقًا وسيصعدون إلى السماء.

الملك: عجبًا ..! أيُّكم أصدق إذن؟!

الصيَّاد: مولاي! ليكن أي الرأيين .. على كل حال لا لزوم لسدِّ الغار حيطة للمستقبل ..

غالياس: كيف؟ أَوَنتركهم هكذا لعبث العابثين وقد عرف الجميع مكانهم؟

الملك: وإذا استيقظوا حقًا يا غالياس ووجدوا البناء عليهم! ..

غالياس: عندئذٍ يا مولاي .. عندئذٍ .. مولاي! لقد خطرت لي فكرة!

الملك: ما هي؟

غالياس: نترك لهم مَعاول داخل الكهف .. هنا .. بجوار المدخل ثم نسده. فإذا ما بعثوا وأرادوا الخروج ووجدوا البناء عليهم ضربوا ضربتين بالمعاول فينفتح ..

الملك: لا بأس بالفكرة!

غالياس: هاتوا ثلاثة معاول .. أسرعوا (يخرج أحد الأتباع سريعًا ويأتي بالمعاول) ضعوها هنا بجوار المدخل ..

الملك (يُشير إلى رجال الدين): الآن تقدّموا أيها الرهبان .. وقوموا بشعائركم ورسومكم وداعًا للقديسين .. وبعدئذٍ فلنخرج ولتدق الطبول، وينفخ في الأبواق إيذانًا بسد القبر المُقدَّس .. يا غالياس .. وأنت يا غالياس .. أعلن إلى الشعب أن الأميرة قد منعتها المرض عن توديع القديسين ..

(الرهبان وخلفهم الملك والحاشية يقومون بالشعائر والتراتيل ثم يخرج بعد ذلك الجميع، بريسكا تظهر بعد خلو المكان.)

غالياس (يعود مسرعًا في حذر): لقد غافلتهم وجئتُ إليك، الوقت ضيق .. وعمًا قليل تُدق الطبول ويُنفخ في الأبواق لسد المدخل فأخبريني يا مولاتي على عجل بم تأمرين؟

بريسكا: لا شيء بعد ذلك يا غالياس .. إني أشكرُك .. اذهب ..

غالياس: ألم أنفد كل ما أمرت به يا مولاتي؟ ..

بريسكا: إني أعرف إخلاصك وطيب قلبك دائمًا. اغفر لي يا غالياس إذا نالكَ بسببي ضرر من أبي. أنت قلت إنك مستعد للموت من أجلي. وقد يسألك الملك عني وقد يتهمك بمطاوعتي .. وقد يُحاكمك ويقتلك ..

غالياس: لا يهمني هذا يا مولاتي. إن حياتي الباقية هي لك وفي خدمتك دائمًا .. لكن ...

بريسكا: ماذا؟

غالياس: إني أخشى تعذيب ضميري أكثر من تعذيب الملك. ويشهد الله كم توسّلتُ إليك وكم حاولتُ صرفك عن عزمك .. وكم أردتُ إقناعك ..

بريسكا: لا تخف يا غالياس! ذمتك بريئة. هذا يجب أن يكون .. هذا قدر!

غالياس: نعم .. وإنك حلمت ذات مرة أنك ستُدفن حيّة ..

بريسكا: صدق الحلم ..

غالياس: كما صدق العرّاف. إنك قديسة يا مولاتي! نعم إنك قديسة بين القديسين .. وهذا ما يعزيني .. (يُسمع دق الطبول) دقت الطبول .. يجب أن أخرج .. الوداع يا مولاتي! الوداع! لو لم تكلفيني بمهمة تهدئة الملك الثاقل وتعزيته وإقناعه لمتُ معك هنا ..

بريسكا: ومهمة أخرى يا غالياس. إذا علّمتَ الناس قصتي وتاريخي فاذاكر لهم كما أوصيتك ...

غالياس (وهو يهم بالخروج): أنكِ قديسة ..

بريسكا: كلا .. كلا .. أيها الأحمق الطيب. ليس هذا ما أوصيتك ..

غالياس: أنكِ امرأة أحبّبت ..

بريسكا: نعم .. وكفى.

(يخرج غالياس وتبقى وحدها ويغلق الكهف عليها وعلى الموتى.)

بعض ما نُشِرَ عن كتاب «أهل الكهف»

كُتِبَت أهل الكهف سنة ١٩٢٩م ونُشِرَت لأول مرة سنة ١٩٣٣م

بالعربية

أول مقال نُشِرَ عن كتاب «أهل الكهف» لفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الأزهر (الأسبق).

كنتُ ذات يوم أسير في بعض شوارع القاهرة، فلمحت في وجه دكان من
دكاكين الورّاقين كتابًا أنيقًا، في جمال شكله بساطة تدل على ذوق وفهم.
توفيق الحكيم، أهل الكهف، مطبعة مصر، سنة ١٩٣٣م

هذا كل ما كُتِبَ بظاهر الكتاب. أمّا «توفيق الحكيم» فمؤلف لم تتداول اسمه
الجرائد، ولا تناقلت المجلات صورته. وقد يكون أفنديًا أصيلًا، وقد يكون شيخًا مُعمَّمًا
أو مطربشًا. ففي الشيوخ أفندية أيضًا.

و«أهل الكهف» نسمع قصصهم من قارئ السورة في المسجد يوم الجمعة، ويجري ذكرهم على ألسن الناس مثلًا مضروبًا لمن ينام نومًا طويلًا. فهل الأمر تفسير لسورة الكهف؟ أو هو بحث في قصة أهل الكهف وكيف تناقلتها الأجيال وتجاوزتها الأساطير والأخبار؟ .. مرّت كل تلك المعاني بخاطري. ولمّا كنت غير مولع بتفسير المُحدّثين، ولا مُغرَم بتحقيق الأفاضل القديمة وأصولها، فقد مضيت مكتفيًا بمتعة النظر.

وما هو إلا أن عُذْتُ إلى داري حتى أقبل صديق يحمل إليّ هذا الكتاب الذي كان يستوقف نظري منذ قريب. وإذا صاحب الكتاب ليس شيخًا ولا مُعمّمًا بل هو أفندي من خيار الأفندية. ولمّا شرعتُ في مطالعة الكتاب أحسست بأن جمال معناه لا يقل عن جمال صورته.

رواية تقوم على قصة أصحاب الكهف. وقد درس مؤلّفها القصة درسًا محيطًا، ثم أسلم جوهرها إلى خيال مُوفّق وفكر مستقيم وذوق سليم، فصوّر من كل أولئك موضوعًا روائيًا طريفًا كساه الأسلوب السهل الفصيح حلة رائعة.

في رواية أهل الكهف أشخاص تستشِفُّ من حوارهم طبائع نفوسهم وخبايا ضمائرهم وأسرار خلائقهم. وفي أهل الكهف ما يُريك الدين إيمانًا يملأ الصدر، وما يريكه موهنًا تلينه عواطف اليأس وتُدافعه زينة الحياة وشهواتها. وفي الرواية تحليل للعواطف في هدأتها وتحليل للعواطف في ثورتها. وفي أسلوبها أحيانًا ثوب من السخرية يرمي في لطف إلى مرمى بعيد.

وفيها حب — إذا كان لا بُدَّ للناس من حب، وإن لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

كان مشلينيا الوزير يُحب بريسكا متبناة دقيانوس قبل أن يرقد في الكهف قرونًا. فلمّا أحياء الله وذهب إلى قصر الملك وجد بريسكا أخرى هي بنت صاحب القصر فحسبها حبيبته. وأمر مشلينيا وبريسكا من أقوى حوادث الرواية وأروعها وأدّلها على مهارة الكاتب في تصوير مواقف الحب تصويرًا يكشف بعض المعاني كشفًا صريحًا بليغًا، ويومئ إلى بعض المعاني إيماءً رقيقًا بليغًا.

يذهب هذا الحب القوي الشقي إلى أسمى مراتب الحب وينتهي إلى أنبل نهاياته من الجود بالنفس في سبيله عن سكينه ورضا.

وقصة أهل الكهف من خير ما عرف القصص العربي وليست تحتاج إلى عناء لتكون رواية تمثيلية قلما ظفر بمثلها المسرح المصري.

وإذا كان هذا الأثر باكورة الثمرات بقلم الأستاذ توفيق الحكيم، فهي نفحة النبوغ تتفتق أكامه عن زهره. وإن كان للأستاذ آثار من قبلها فهذه آية نضجه واكتمال مواهبه.

والمؤلف الذي يفر من مجد إحسانه، بما في طبعه من حياء النبيل والتواضع جدير بأن يحفز في سبيل المجد والإحسان من كل معنيّ بنهضة الأدب.

بيد أن العبقرية تشق سبيلها إلى الكمال والنجاح على كل حال.

مصطفى عبد الرازق

السياسة الأسبوعية

ملحق العدد ٣١٠٧، ٨ مايو ١٩٣٣

بالألمانية

من دراسة طويلة منشورة في مجلة «فكر وفن» الألمانية لناجي نجيب العدد ٤٠، العام ٢٠، ١٩٨٤م ميونيخ، ألمانيا الغربية، بعنوان: «أهل الكهف» ونشأة الأدب المسرحي العربي (المقروء).

حين نَشَرَ توفيق الحكيم عام ١٩٣٣م مسرحيته «أهل الكهف» (وكان قد كتبها قبل ذلك عام ١٩٢٩م) استقبلها أعلام الأدباء والكتّاب كحدث كبير، فيها — كما يذهب طه حسين في مقال له في «مجلة الرسالة» (أواخر مايو ١٩٣٣م) — نشأ فن وُفُتِحَ باب جديد في الأدب العربي .. «ويمكن أن يُقال إنها رفعت من شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يثبت للآداب الأجنبية الحديثة والقديمة .. بل ويمكن أن يُقال إن الذين يحبون الأدب الخالص من نُقَّاد أجانب يستطيعون أن يقرءوها إن تُرجمت لهم ...» فهي «مزاج معتدل» من الروح المصري العذب و«الروح الأوربي القوي» ..

بمسرحية «أهل الكهف» دخل الأدب الدرامي دائرة الوعي العام كفرع من فروع الأدب العربي الرسمي، وقد ارتفع إلى هذه المرتبة بعيداً عن خشبة المسرح.

ويُلَخِّصُ الحكيم الأصدقاء التي أثارتها «أهل الكهف» بين معاصريه (الشيخ مصطفى عبد الرازق والعقاد والمازني ...) والاحتفاء الكبير الذي قوبلت به فيقول: «الذي استقر في ضمائر أهل الأدب يومئذٍ أن شيئاً ما، على أساس ما، وُضِعَ، ولم يشذ أحد من الأدباء عن اعتبار العمل لونا من الأدب العربي، مُثَّلٌ أو لم يُمَثَّل!» (مقدمة «الملك أوديب» ١٩٤٩).

وبوجه عام فقد استقبل الشباب المثقف في الثلاثينيات أعمال الحكيم القصصية والدرامية بحماسة كبيرة باعتبارها فنوناً أدبية مستحدثة لم يعرفها الأدب العربي من قبل. ويُعَبَّرُ بهاء طاهر (من مواليد عام ١٩٣٥م) عن موقف الجيل التالي من «أهل الكهف» ومسرحيات الحكيم الذهنية إذ يقول: «كانت «أهل الكهف» و«شهرزاد» مدخل جيل بأكمله إلى الفن الدرامي، جيل عرف الدراما عن طريق القراءة قبل أن يعرفها على خشبة المسرح. ففي الأربعينيات وأوائل الخمسينيات لم يكن للحياة المسرحية وجود حقيقي. وكانت هذه القطع الأدبية الجميلة تُلْهَبُ خيالنا باعتبارها نماذج سامية لفن مفقود. وحين كان يُثار الجدل في ذلك الوقت عن مسرح توفيق الحكيم وعن المسرح الذهبي الذي كان يُقرأ ولا يُمَثَّلُ، لم نكن نفهم المشكلة بالضبط. فقد كنا نجد في «أهل

الكهف» و«شهرزاد» ما نجده في سائر المسرحيات العالمية التي أُتيح لنا أن نقرأها من حوار رائع وفكر جليل». (ألغاز شهرزاد» في «الكاتب» ١٩٦٦م، العدد ٦٩، ١٢٠).

وبمعنى مُشابه يقول ألفريد فرج (من مواليد عام ١٩٢٩م): «إن مسرحيات الحكيم هي التي ألهمت فناني ومتقفي جيلنا حب هذا الفن ... اقترن أول لقاء بين جيلنا والمسرح بالدهشة والحب أمام «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«الخروج من الجنة»...» («دليل المُتفرِّج الذكي إلى المسرح»، ١٩٦٦م).

ويقول ناجي نجيب: إن هناك خلفية تاريخية واضحة لذلك الاستيعاب نلمسها في العديد من المصادر، وفي مقدمتها الإحساس العام بضالة الثقافة المصرية وضعفها.

هناك شكوى في هذه الفترة (في العشرينيات والثلاثينيات) وهي نقص الغذاء الفكري في الحياة المصرية وأنه لا سبيل إلى تلمس هذا النوع من «الغذاء» في الإنتاج المصري. وكان المُتقِّف إذ ذاك مزيجًا من الأمل ومن مشاعر السأم والملل. والأمر أعم وأشمل، وما الثقافة سوى مظهر واحد من مظاهر الضعف أو القصور.

ويحمل أحمد أمين في مقال بعنوان «بين اليأس والرجاء» («الرسالة»، ١٩٣٣م، العدد ١٦) أبعاد القضية، فيشير إلى أن روح التشاؤم والشك قد شملت أبواب الثقافة والاجتماع والسياسة، وأن هذا الطعن في «حياة الشرق» قد زاد الطين بلة؛ «فدعاة اللغة والأدب» يلحون على أن «الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم، ولا شيء من ذلك في الأدب العربي، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبي ولغة أجنبية، وإلا ظل أعمى...»

وبإيجاز فحاجة المثقفين في هذه الفترة إلى «الغذاء الفكري والروحي» كبيرة، وبالمثل حاجتهم إلى إثبات الشخصية الذاتية لمعادلة ما يحسونه من نقص وضعف، وأيضًا للتعويض عن الواقع السيئ. هناك حاجة مُلحة «للمعنويات» لتخطي حقائق الواقع و«ماديات» الحياة من حولهم. هذا هو التناقض الذي نشأت من خلاله «أهل الكهف» ومسرحيات الحكيم الذهنية «شهرزاد» و«بجماليون» و«أوديب». ويشرح الحكيم في إحدى مقالاته في الثلاثينيات بروز فكرة الشخصية الذاتية وارتباطها بمفاهيم

«الثقافة» و«الفن» عند جيل الرُّوَّاد، وعلى وجه الخصوص بمفاهيم «الإبداع» و«الخلق» و«البحث عن الأسلوب». وهي مفاهيم جديدة ذات معانٍ مستحدثة ..

ليس غريبًا مع هذا التعطُّش إلى «الثقافة» وإلى «الغذاء الفكري» و«المعنويات» أن يكون الطريق إلى تأهيل الفن الدرامي للقبول في حديقة الأدب العربي هو الفكر، وليس من خلال المسرح وفن التمثيل بمقدار اكتشافهم لعالم الفكر والفن الغربي، وما يحويه من ثراء ذهني وروحي، تطلّعون بعين الخيال إلى آفاق العالمية وقضايا الإنسان «في أفكاره الثابتة في كل زمان» (بتعبير الحكيم)، وتطلّعون إلى «الخلق» و«الإبداع»، والمشاركة في سماء الحضارة الرفيعة. وهذه جميعًا من مفردات هذا الجيل (جيل «الحنين الحضاري»)، وينعكس هذا بوضوح على تعليق طه حسين على «أهل الكهف»، وعلى المنظور الذي استوعب منه المثقفون وكبار الأدباء هذا العمل الأدبي. فطه حسين في تعليقه السابق لا يتوقّف لحظة لِيُناقش محتوى «أهل الكهف»، وإنما يقيمها فحسب من مضمون ما حقّقته للأدب العربي إزاء الآداب الأخرى أو إزاء أدب الغرب. وعلى نحو مُشابه استوعبها الجيل التالي الذي عبّر عنه بهاء طاهر (ومن هذا المنظور استوعب البعض أيضًا «عودة الروح»).

وهكذا دخل النص الدرامي حديقة الأدب العربي الحديث من خلال مسرح الفكر، أي كفنٍّ من فنون القول لا التمثيل. ويوضّح الحكيم في «سجن العمر» كيف استوعبت البيئة الأدبية مسرحه الفكري دون صعوبات: «فالبيئة الأدبية في بلادنا كانت فعلاً مستعدة لتقبله؛ في حين أن البيئة المسرحية كانت لا تزال في وادٍ آخر .. وخاصة بعد عودتي من الخارج ... فقد اختفت حتى المترجمات الحميدة، وخضع المسرح وقتئذٍ إلى تيارين اثنين؛ التيار الإضحائي والتيار الإبكائي، وكان لا بُدَّ إذن من تيار ثالث هو التيار الثقافي ...»

وبديهي أن الترجمة والتعريب — على ما لهما من تأثير — لا يكفيان لترسيخ فن مفقود، والأغلب أن تظل روائع الأدب المسرحي المترجمة بعيدة عن آفاق الجمهور في غياب النصوص الأدبية العربية الدرامية المماثلة. ومن هنا كان الدور الذي أدّته

مسرحيات الحكيم الذهنية. وبهذه الأعمال الأدبية الأولى اشتهر الحكيم وانضم بها إلى أعلام الأدب وقتذاك (خليل مطران وطه حسين والعقاد والمازني والزيات ...) كانت شيئاً جديداً، عبّر عنه «أستاذ الجيل» لطفي السيد في أول لقاء له مع الحكيم بعد نشر «أهل الكهف» و«شهر زاد» بقوله: «أنت شيخ طريقة»!

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

بعض ما نُشر عن كتاب «أهل الكهف»